

سُورَةُ اللَّيْلِ

حِينَ تَفْتَرُ الْخُطَى وَيَنْكَشِفُ مَصِيرُ السَّعْيِ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ اللَّيْلِ

حِينَ تَفْتَرِقُ الْخُطَى وَيَنْكَشِفُ مَصِيرُ السَّعْيِ

تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السورة التي تضع الإنسان أمام الطريق الذي يصنعه كلَّ يوم

ليست سورة الليل حديثاً عن ظاهرة كونية تتعاقب مع النهار، ولا موعظةً عابرةً في البذل والبخل، ولا تقسيماً أخلاقياً بسيطاً بين رجلٍ يعطي ورجلٍ يمسك؛ إنها سورة تكشف البنية الخفية التي يتكوّن منها المصير، وتضع يد الإنسان على الحقيقة التي كثيراً ما يحاول الهرب منها: أن الحياة كلّها سعي، وأن كل حركةٍ في هذا الوجود تسير بصاحبها إلى غاية، وأن الإنسان لا يبقى واقفاً في موضعه وإن توهم السكون؛ لأنه يتشكّل في كل لحظة بما يحب، ويخت مصيره بما يختار، ويقترّب من نهايته بكل خطوةٍ يخطوها في ظاهر الأرض أو في أعماق الضمير.

تبدأ السورة بالليل حين يغشى، وبالنهار حين يتجلّى، ويخلق الذكر والأنثى، ثم تعبر من اختلاف مشاهد الكون إلى اختلاف مساعي الإنسان: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾؛ فكأن الظلمة والنور ليسا مشهدين في الأفق وحده، بل صورتان تتكرران في النفس والطريق والمصير، وكأن اختلاف الذكر والأنثى شاهدٌ على أن التنوّع سنةٌ راسخةٌ في الخلق، غير أن اختلاف الإنسان الأخلاقي ليس اختلاف تكوينٍ لا اختيار له فيه، بل

اختلاف إرادةٍ ومسلِكٍ واستجابة: هذا يعطي ويتقي ويصدّق بالحسنى، وذلك يخل ويستغني ويكذب بالحسنى؛ ومن هذين الأصلين تنشأ وجهتان، ويتشكّل طريقان، ويأتي التيسير من الله موافقاً لما اختاره القلب وصدّقته الجوارح.

إنها سورة «التيسير» بقدر ما هي سورة «السعي»؛ فالإنسان يبدأ بالاختيار، ثم تأتي المعونة الإلهية فتفتح له الطريق الذي أَراده وسلك مقدماته. من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى يسهّر الله الليسر، حتى تصبح الطاعة في قلبه محبوبةً، والخير قريباً، والبذل خفيفاً، والعودة إلى الله وطناً لا غربة فيه؛ ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى يسهّر الله للعرى، حتى تثقل عليه أبواب النور، ويستسهل ما يهلكه، ويألف الظلمة إلى الحد الذي يؤلمه فيه ظهور الحقيقة. وليس هذا التيسير إكراهاً ينفي المسؤولية، بل هو الجزاء الأول الكامن في الطريق نفسه؛ فمن صدق في طلب النور فُتحت له نوافذه، ومن أصرّ على الظلمة ضاقت عيناه حتى صار الضوء عنده وجعاً.

وفي السورة انتقال بالغ الدقة من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي، ومن الليل الذي يغشى الأرض إلى البخل الذي يغشى القلب، ومن النهار الذي يتجلّى للعيون إلى الحسنى التي تتجلّى للبصيرة، ومن سقوط المال عن صاحبه عند التردّي إلى بقاء العمل وحده في لحظة انقطاع كل ما كان الإنسان يظنه سنداً. إنها تعيد ترتيب مفهوم الغنى والفقر؛ فليس الغنى من استغنى بماله عن الناس حتى توهم أنه مستغنٍ عن الله، وليس الفقير من أنفق ماله حتى خفّت يده منه، بل الغنى حقاً من امتلاء قلبه باليقين حتى أصبح العطاء عنده حفظاً للمال في مستقره الأبدي، والفقير من جمع ما لا يستطيع أن ينقذه حين يتردّى.

وسورة الليل، على قصر آياتها، تبني تصوراً كاملاً للوجود الإنساني؛ فهي تبدأ بالقسم، ثم تقرر اختلاف السعي، ثم تعرض النموذجين المتقابلين، ثم تكشف قانون التيسير، ثم تنزع الوهم عن المال، ثم تقرر أن الهدى على الله، وأن الآخرة والأولى له، ثم يعلو صوت الإنذار من النار المتلظية، قبل أن تفتح نافذة النجاة للأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى، لا طلباً لمكافأة بشرية ولا رداً لجميل سابق، بل ابتغاء وجه ربه الأعلى، حتى تنتهي السورة بكلمة من أرق كلمات القرآن وأوسعها رجاءً: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾.

وما بين ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ و﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ تمتد الرحلة الإنسانية كلها: سعيٌ يبدأ في الأرض، وطريقٌ يتكوّن بالاختيار، وتيسيرٌ يأتي من الله، وعقبةٌ يجتازها الإيمان، ومالٌ يتحول من قيدٍ إلى جناح، ونيةٌ تنطهر من أعين الناس، ثم رضاٌ ينتظر العبد عند نهاية الطريق. إن آخر السورة ليس منفصلاً عن أولها؛ فالرضا لا يهبط على حياة بلا سعي، وإنما يولد من سعي عرف وجهته، وتخفف من أثقاله، واتجه إلى الله بقلب لا يريد من عطائه إلا وجهه.

وستندبر آيات هذه السورة وفق منهج يجمع بين دلالة اللفظ وسياق النظم ووحدة الموضوع، فلا نعزل الآية عن موضعها، ولا نحملها على معنى غريب عن مقصدها، ولا نجعل التأمل بديلاً عن التفسير، بل نبدأ بما يدل عليه اللفظ القرآني في سياقه، ثم نصغي إلى ما يفتحه من أسئلة النفس والحياة والمصير. وستتبع كيف تتناظر الثنائيات في السورة: الليل والنهار، الذكر والأنثى، العطاء والبخل، التقوى والاستغناء، التصديق والتكذيب، اليسرى والعسرى، النجاة والتردي، النار والرضا؛ لنذكر أن هذه المقابلات ليست زينةً بيانية، وإنما هندسة قرآنية تكشف أن الإنسان لا يعيش في فراغ، وأن كل اختيار يضعه، ولو قليلاً، في إحدى الجهتين.

هذه السورة لا تسأل الإنسان عن الصورة التي يحب أن يراه الناس عليها، بل عن الوجهة التي يتحرك إليها حين لا يراه أحد؛ لا تسأله كم امتلك، بل ماذا صنع بما امتلك؛ لا تسأله كم تحدث عن الخير، بل أي خير خرج من يده؛ ولا تسأله عما تمنّاه لنفسه، بل عن الطريق الذي مهّده بأعماله حتى أصبح ميسراً له. إنها تقترب من القلب في أشد مناطق خفاء، وتقول له: قد تستطيع أن تخفي دوافعك عن الخلق، لكنك لا تستطيع أن تمنع دوافعك من أن تصنعك.

ومن هنا ندخل إلى سورة الليل لا بوصفها نصّاً يُقرأ في دقائق، بل بوصفها مرآة تقف أمام العمر كلّها؛ فما من إنسان إلا وله ليل يغشاه ونهار يتجلّى فيه، وله مالٌ أو قدرةٌ أو كلمةٌ يستطيع أن يبذلها أو يحبسها، وله «حسنى» يُطالب بأن يصدّق بها، وله طريق يتيسّر له بمقدار ما يقدم من صدقٍ وتقوى، وله لحظة تردّ لا يغني عنه فيها ما جمع، وله ربٌّ تكفل بالهدى، وملك الأولى والآخرة، وحذر من النار، ووعد المخلصين برضاً لا ينفد.

الفصل الأول

حين يغشى الليلُ العالمَ ويتجلى النهارُ في الضميرِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۖ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۖ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾

يفتح القرآن هذا المشهد بالليل، لا بالنهار، بالستر قبل الكشف، والغشيان قبل التجلي، وكأن السورة تريد أن تبدأ من الموضع الذي يبدأ منه كثير من التحولات الكبرى: من الغيب الذي لا تراه العين، ومن الظلمة التي تبدو ساكنةً بينما يُعدُّ في أعماقها ميلاد الضوء. فالليل ليس فراغاً بين نهارين، وليس توقفاً للوجود عن الحركة، بل غطاءً واسع تعمل تحته سنن الله في صمت؛ تستريح الأجساد، وتحرك الأرواح، وتنضج البذور تحت التراب، وتتهيأ الموجودات ليومٍ جديد، ويعود الإنسان من ضجيج العالم إلى ذلك الصوت الذي طالما غطته الأصوات.

والقسم بالليل حين يغشى يرسم الحركة ولا يصف الكثرة؛ فالليل يجيء كأنما يغمر الأشياء شيئاً فشيئاً، ويمد ستاره على الطرق والبيوت والجبال والوجوه، فلا يبقى من الفوارق الظاهرة إلا ما يسمح به الضوء الخافت. وفي هذا الغشيان درسٌ للإنسان: كم من حقيقة غشيتها الشهوات حتى اختفت معالمها، وكم من فطرةٍ سترتها العادة، وكم من قلبٍ لم يفقد النور ولكنه تراكت عليه طبقاتٌ من الغفلة حتى حسب صاحبه أن

الظلام طبيعته! إن الليل لا يحو الأشياء، وإنما يحجبها مؤقتاً؛ وكذلك الغفلة لا تلغي الحق، وإن حجبت رؤيته، ولا تبدل طريق الله، وإن جعلت الغافل عاجزاً عن تبينه.

ثم يجيء القسم المقابل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. ولم يقل: والنهار إذا جاء، بل اختار «تجلَّى»، بما في الكلمة من انكشاف وظهور وامتلاء؛ فكأن النهار حقيقة كانت وراء الستر ثم أزاح الله عنها الحجاب. وفي هذا التجلي يسترد كل شيء اسمه وحدوده وملامحه؛ تظهر الطرق كما هي، وتراجع أوهام الظلام، ويعرف السائر موضع قدمه ووجهة خطوه. وهكذا يفعل الوحي في الإنسان: لا يخلق الحقائق خلقاً جديداً، بل يجليها بعد أن غشيتها الأهواء؛ يكشف له أن ما سماه حرية قد يكون عبودية لشهوة، وأن ما ظنه قوة قد يكون خوفاً مستتراً، وأن ما حسبه غنى قد يكون أشد فقر، وأن الخسارة التي خشى في سبيل الله ربما كانت أول أبواب نجاته.

بين الليل والنهار لا يقيم القرآن خصومةً، فكلاهما آية، وكلاهما من خلق الله، ولكلٍ منهما وظيفته في انتظام الحياة؛ غير أن التقابل بينهما يهيئ النفس لفهم التقابل الأخلاقي الآتي في السورة. فالكون يتحرك في نظامٍ من الأزواج والمقابلات، لكن الإنسان هو الكائن الذي يُمتحن في اختيار وجهته؛ الليل لا يعصي وظيفته، والنهار لا يتأخر عن مواعده، أما الإنسان فقد مُنح إرادةً يستطيع بها أن يطلب النور أو يألف الظلمة، وأن يجعل من الليل خلوةً إلى الله أو ستاراً للمعصية، ومن النهار ميداناً للخير أو سوقاً للغفلة.

ثم يتسع القسم ليشمل أصل الخلق الإنساني: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾. وفي الآية تعظيمٌ للخالق سبحانه وتعالى ولقدرته التي أوجدت هذا التنوع، وأقامت بقاء النوع الإنساني على زوجيةٍ متكاملة بها الحياة. إن الذي خلق الليل والنهار، وخلق الذكر

والأنثى، هو الذي أحاط بأسرار الاختلاف كلها، فلا يقع في كونه شيء عبثاً، ولا يتشكل مخلوق خارج علمه وحكمته. وإذا كان اختلاف الليل والنهار والذكر والأنثى اختلافاً داخل وحدة الخلق والنظام، فإن اختلاف المساعي الذي ستعلنه الآية التالية هو اختلاف في الوجهات والغايات والمصائر.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾: هذه هي الحقيقة التي جاءت الأقسام الكونية العظيمة لتوكيدها. وكلمة «السعي» أوسع من العمل الظاهر؛ إنها الحركة المقصودة، والطاقة المبذولة، والعمر الذي يتحول إلى خطوات، والإرادة حين تخرج من خفائها إلى العالم. كل إنسان يسعى، حتى من يتوهم أنه عطل حياته؛ لأنه بسكونه يسعى إلى مصير، وبإعراضه يبتعد، وبتأجيله يختار، وبصمته في موضع الكلمة يصنع أثراً. لا توجد في الحياة منطقة محايدة تماماً؛ فالوقت يحملنا ولو لم نمش، والعادات تشكّلنا ولو لم ننتبه، والقرار الذي نهرب منه كثيراً ما يُتخذ بسبب هروبنا نفسه.

إن السورة لا تقول إن أعمالكم شتّى فحسب، بل تقول: ﴿سَعْيَكُمْ﴾، لتكشف ما وراء الفعل من اتجاهٍ ومقصدٍ وبذل. قد تتشابه صورتان وتختلف حقيقتهما؛ ينفق رجلان المال نفسه، لكن أحدهما ينفقه ابتغاء وجه الله، والآخر ينفقه ليشتري مكاناً في عيون الناس. وقد يفعل إنسانان العمل نفسه، لكن قلب أحدهما يسير إلى الله وقلب الآخر يدور حول ذاته. إن الذي يمنح السعي هويته ليس شكله الخارجي وحده، بل الحقيقة التي تدفعه والغاية التي ينتهي إليها.

﴿شَتَّى﴾ لا تعني مجرد الكثرة، بل التباعد والافتراق؛ فالمساعي التي تبدأ متجاوزةً في ظاهر الدنيا قد تنتهي متباعدةً تباعد النعيم والحجم. رجلان يخرجان كل صباح إلى الحياة، يأكلان من أرضٍ واحدة، ويعيشان تحت سماءٍ واحدة، وربما يجلسان في

مجلس واحد؛ لكن أحدهما يبني في الخفاء طريقًا إلى الرضا، والآخر يحفر لنفسه مجرى إلى الندامة. لا تُرى المسافة بينهما أول الأمر، لأنها مسافةٌ تنمو داخل القلب، ثم تسع مع كل اختبار، حتى يأتي يومٌ ينكشف فيه أن الخطوتين اللتين بدتا متقاربتين كانتا تسيران إلى نهايتين لا تلتقيان.

وهنا تقطع السورة وهما إنسانياً عميقاً: أن الناس متشابهون ما دامت أجسادهم تتحرك في العالم بالصورة نفسها. كلا؛ فالإنسان ليس موقعه الجغرافي ولا مظهره الاجتماعي ولا مقدار ما يحوزه، بل وجهة سعيه. قد يكون جسده في السوق وقلبه في الآخرة، وقد يكون واقفاً في المحراب وقلبه يطوف حول ثناء الناس. قد يكون فقير اليد غني الوجهة، وقد يكون ممتلئ الخزائن خالي الروح. إن قيمة السعي لا تُقاس بالضجيج الذي يحدثه في الأرض، وإنما بالنهاية التي يقود إليها صاحبه عند الله.

ويجيء التعبير بالجمع: ﴿سَعِيَكُمْ﴾، ليضع البشرية كلها تحت هذا القانون. لا أحد يخرج من مملكة السعي، ولا أحد يستطيع أن يضع عمره خارج ميزان العقوبة؛ الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والرجل والمرأة، كلهم يتحركون، وكلهم يحولون أيامهم إلى مصائر. والفارق ليس بين من يسعى ومن لا يسعى، بل بين من يسعى لما يبقى ومن يستهلك سعيه فيما يفنى، وبين من يعرف الطريق ومن يقطع عمره في اتجاه لا يريد أن يرى نهايته.

إن أول ما توقظه هذه الآيات في القلب هو السؤال الذي لا ينبغي تأجيله: إلى أين يمضي سعيي؟ ليس: ماذا أنجزت في أعين الناس؟ ولا: كم مرة سبق اسمي أسماء الآخرين؟ بل: أي إنسانٍ صنعت مني أعمالي المتكررة؟ أي طريقٍ صار أسهل على قلبي بسبب اختيارياتي؟ هل تتجه روحي نحو اليسرى، حيث يصبح العطاء والتقوى

والتصديق طبيعةً تتجذر في داخلي، أم تنحدر نحو العسرى، حيث يغدو البخل والاستغناء والتكذيب قيوداً أضعها بيدي ثم أشكو من ثقلها؟

فالإنسان، في ضوء هذه السورة، لا ينتظر المصير في آخر الطريق فقط؛ إنه يصنع ملامحه في أثناء السير. الجنة تبدأ في القلب تصديقاً وتقوى وسخاءً قبل أن يدخلها الجسد داراً وقراراً، والنار تبدأ تكذيباً واستغناءً وبخلاً قبل أن يراها صاحبها متلظيةً أمامه. وما الآخرة إلا انكشافٌ كامل للحقيقة التي ظل الإنسان ينسجها في الدنيا خيطاً خيطاً، وعادةً عادةً، وخطوةً خطوةً.

وهكذا يضعنا مطلع السورة بين مشهدين: ليلٌ يغشى ونهارٌ يتجلى، ثم يترك لنا أن نتأمل أيهما يتكاثر في أرواحنا. فليس أخوف ما في الليل أن يختفي الطريق عن العين، وإنما أن يختفي عن القلب فلا يعود يبحث عنه؛ وليس أجمل ما في النهار أن تظهر الأشياء، وإنما أن يتجلى للإنسان معنى وجوده، فيرى أن عمره رأس ماله، وأن عمله سفره، وأن كل يومٍ يمرُّ به لا ينقص من حياته فحسب، بل يضيف سطرًا جديدًا إلى مصيره.

من هنا تبدأ سورة الليل: من الكون وهو يعرض أمام الإنسان قانون التعاقب والاختلاف، ثم من الإنسان وهو يحوّل حريته إلى سعي، وسعيه إلى طريق، وطريقه إلى مصير. وبعد أن قررت أن المساعي شتّى، ستكشف في الآيات الآتية أصل هذا الشتات، وتعرض النموذجين اللذين تنفرع عنهما الطرق كلها: يدٌ تعطي وقلبٌ يتقي وروحٌ تصدق بالحسنى؛ ويدٌ تبخل ونفسٌ تستغني وقلبٌ يكذب بما وعد الله. وفي المسافة بين هذين النموذجين تُكتب قصة الإنسان كلها.

الفصل الثاني

الْيَدُ الَّتِي تُعْطِي وَالْقَلْبُ الَّذِي يَتَّقِي وَالرُّوحُ الَّتِي تُصَدِّقُ

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿١﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٢﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٣﴾﴾

بعد أن قررت السورة الحقيقة الكبرى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، لم تترك الإنسان حائرًا أمام هذا التشتت، بل كشفت له عن الجذر الذي تنبت منه المساعي، وعن البذرة الخفية التي ينمو منها الطريق حتى يصير مصيرًا. فالناس لا يفترون في نهاياتهم فجأة، ولا يستيقظ أحدهم يوم القيامة ليجد نفسه في وجهة لم يضع لها في الدنيا مقدمة؛ إن الافتراق يبدأ من استجابة صغيرة في القلب، ومن موقف يبدو عابرًا، ومن يد تفتح أو تُقبض، ومن يقين يُصدّق أو يُكذّب، ثم تتجمع الاختيارات حتى تتحول إلى طبيعة، وتتحول الطبيعة إلى طريق، ويأتي التيسير الإلهي فيجعل الإنسان ماضياً إلى النهاية التي أحب مقدماتها واختار أبوابها.

يبدأ النموذج الأول بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾. والعطاء هنا مطلق، لم يذكر متعلّقه، لتتسع دلالاته لكل ما يمكن أن يبذله الإنسان من خير؛ يعطي من ماله، ومن علمه، ومن وقته، ومن قدرته، ومن جاهه، ومن عفوه، ومن صبره، ومن الكلمة التي ترفع قلباً أو تضيء طريقاً أو تمنع ظلمًا. يعطي مما جعله الله مستخلفاً فيه، مدركاً أن ما

بين يديه لم يبدأ منه، ولن ينتهي إليه، وأنه ليس مالكا مطلقا لما حاز، بل أمين على نعمة ستغادره أو يغادرها، ولن يبقى له منها إلا ما قدمه الله.

واختيار فعل ﴿أَعْطَى﴾ في مطلع صفات المؤمن يكشف مكانة البذل في بناء الشخصية الإيمانية؛ فالإيمان ليس فكرة مغلقة داخل القلب، وإنما حقيقة تضغط على جدران الذات حتى تفتح فيها باباً إلى الآخرين. متى استقر اليقين في النفس، لم يعد الإنسان قادراً على أن يعيش محصوراً في حاجاته الخاصة؛ لأن معرفته بالله توسع قلبه، وشعوره بالنعمة يوقظ مسؤوليته، وإيمانه بالآخرة يحرره من الخوف المرضي على ما في يده. ومن هنا يصبح العطاء برهاناً على أن العقيدة لم تبقَ كلاماً في الذهن، بل تحولت إلى حركة في الواقع.

إن اليد التي تعطي لا تنقص في ميزان الحقيقة، وإن نقص ما فيها في ميزان العدد؛ لأنها تنقل المال من موضع الفناء إلى موضع البقاء، ومن الحياة القلقة إلى الأمان الأبدي، ومن شيء يملكه الإنسان زمناً قصيراً إلى ثواب يلقاه عند الله ولا ينقطع. والذي يمسك ماله خوفاً عليه قد يتوهم أنه يحفظه، بينما هو في الحقيقة يعرضه للزوال الكامل؛ أما الذي يبذله ابتغاء وجه الله فإنه لا يفقده، بل يرسله أمامه إلى الدار التي سيحتاجه فيها أكثر من حاجته إليه هنا.

غير أن السورة لا تجعل مجرد العطاء كافياً؛ فقد يعطي الإنسان طلباً للذكر، أو شراءً للنفوذ، أو استعباداً للضعفاء، أو تغطيةً على ظلم، أو هرباً من تأنيب الضمير، ولذلك أردفت العطاء بالتقوى: ﴿وَاتَّقَى﴾. فالتقوى هي الحارس الذي يصون العطاء من أن يتحول إلى تجارة مع أعين الناس، وهي الميزان الذي يضبط حركة اليد بمراقبة القلب لربه. يعطي المتقي لأنه يخاف أن يرى الله في ماله حقاً فيمنعه، ويخاف أن تصبح

النعمة حجةً عليه، ويخاف أن يمرّ بجوار الألم قادراً على تخفيفه ثم يواصل طريقه كأن شيئاً لم يكن.

والتقوى ليست خوفاً يشلّ الإنسان ويقطعه عن الحياة، بل نقطة عميقة تجعله يحيا وهو يستشعر نظر الله، ويتحرك في العالم دون أن يفقد البوصلة، ويستعمل النعمة دون أن تتحول النعمة إلى سيدٍ يستعبده. إنها الحاجز الداخلي الذي يحول بينه وبين السقوط حين تغيب الحاجز الخارجية؛ فإذا خلا بماله لم يخن، وإذا قدر لم يظلم، وإذا مُدح لم يصدّق كل ما قيل فيه، وإذا أُعطي لم يتكبر، وإذا مُنع لم يعترض على ربه؛ لأنه لا يقيس حياته بلحظةٍ منفصلة، وإنما يراها رحلةً تنتهي إلى لقاء الله.

وفي اقتران العطاء بالتقوى معنى بالغ الدقة؛ فالعطاء يصلح علاقة الإنسان بالخلق، والتقوى تصلح علاقته بالخالق، وكأنّ السورة تبني الإنسان الصالح من اتجاهين متكاملين: قلبٌ يتوجه إلى الله، ويدُّ تمتد بالخير إلى عباده. فلا يكفي أن يزعم المرء صلاح باطنه بينما لا يصل من خيره شيءٌ إلى أحد، ولا يكفي أن يملأ الحياة أعمالاً ظاهرةً بينما قلبه يطلب بها غير الله. إن تمام السعي أن يكون المنبع صافياً والمجرى نافعا: تقوى في السر، وعطاء في العلن والخفاء.

ثم تبلغ الصفات الثلاث ذروتها في قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى﴾. والحسنى كلمةٌ تتسع لما وعد الله به عباده من العاقبة الحسنة، واللجنة، وللجزاء الكريم، ولحقيقة الإيمان التي جاء بها الوحي. إنه يصدّق بأن عند الله خيراً مما يبذله، وأن العطاء لا يضيع، وأن التقوى ليست حرماناً، وأن الطاعة ليست عبثاً على الحياة، بل طريق الحياة إلى كمالها، وأن وراء هذه الدنيا داراً توزن فيها الأشياء بميزانٍ لا يخدع ولا يحور.

والتصديق بالحسنى ليس تصديق اللسان وحده؛ لأن اللسان قد يردد حقائق لا تتحرك لها الجوارح، وقد يتحدث الإنسان طويلاً عن الآخرة ثم يعيش كأن الدنيا مستقره الأخير. التصديق الذي تصفه السورة هو ذلك اليقين الذي يغير علاقة الإنسان بما في يده؛ فمن صدّق بأن ما عند الله أبقي، هان عليه أن يعطي، ومن صدّق بالحساب اتقى، ومن صدّق بالجنة لم يجعل راحته العاجلة أعظم غاياته، ومن صدّق بوعد الله لم يضطرب إذا تأخر ظهور الثمرة.

هكذا ترتبط الصفات الثلاث في نظام لا يمكن تفكيكه: العطاء هو الحركة الظاهرة، والتقوى هي الضمير الحارس، والتصديق بالحسنى هو الأصل الاعتقادي الذي يمد الحركة والضمير بالقوة. يعطي لأنه اتقى، ويتقي لأنه صدّق، وثبت على عطائه وتقواه لأن الحسنى عنده ليست احتمالاً غائماً، بل حقيقة أوثق في قلبه من الأشياء التي تمسكها يده. وإذا ضُعب التصديق ثقل العطاء؛ لأن الإنسان حين لا يرى إلا الدنيا يعتقد أن ما يخرج من يده قد خرج من وجوده، أما المؤمن فيراه قد انتقل من خزائن الأرض المهددة إلى خزائن الله الباقية.

إن الإنسان لا يبخل دائماً لقلّة المال، وإنما يبخل أحياناً لقلّة اليقين؛ فاليد ليست إلا منفذة لما استقر في القلب. وقد يملك الفقير يقيناً يجعله أوسع عطاءً من صاحب الخزائن، لأن الغنى الحقيقي ليس كثرة الموجود، بل التحرر من الخوف عليه. كم من إنسان لا يملك إلا القليل، ومع ذلك يشعر أن له في هذا القليل متسعاً لغيره، وكم من صاحب ثروة يعيش محاصراً بها، يعدّها كل ليلة، لا ليفكر أين يضع حق الله منها، بل ليطمئن أن الجدار الذي بناه بينه وبين الفقر ما زال مرتفعاً! غير أن المال الذي يتحول إلى جدار يحجب الإنسان عن الله لا يحمي، بل يسجنه.

ثم تأتي النتيجة العجيبة: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾. ليست «اليسرى» عملاً واحداً، بل الطريق المفضي إلى الخير والرضا والجنة، والحالة التي تتألف فيها فطرة الإنسان مع أمر الله، فيجد في الطاعة سكينَةً وإن شقَّت على الجسد، وفي البذل راحة وإن نقص به المال، وفي الصدق نجاةً وإن كلفه موقفاً صعباً. إن الله لا يعبده بأن تكون الدنيا كلها خاليةً من الألم، وإنما يعده بما هو أعمق: أن ييسره للطريق الذي تنتهي مشقته إلى الراحة، وتفضي غربته إلى الأنس، ويثر صبره رضاء لا ينقطع.

والتعبير القرآني لا يقول: فسيسر اليسرى له، بل يقول: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾؛ فالتيسير يقع في الإنسان نفسه قبل أن يقع في الظروف من حوله. قد تبقى الطريق صعبةً في ظاهرها، لكن الله يخلق في قلبه من القوة والرضا واليقين ما يجعل الصعب محتملاً، والمرَّ عذب العاقبة، والتكليف محبوباً بما يوصله إليه. وقد نتعقد ظروف الحياة، بينما تنفتح في داخله سعةٌ لا تدركها المقاييس؛ فيكون محاطاً بالحن لكنه غير محاصر، قليل المال لكنه واسع النفس، كثير المسؤوليات لكنه مستندٌ إلى ربه.

وهذا من أسرار الهداية: أن الله لا يغيّر الطريق للعبد دائماً، لكنه يغيّر العبد حتى يصبح قادراً على السير فيه. لا يرفع عنه كل حمل، بل يقوِّي كتفه؛ ولا يمنعه من دخول الليل، بل يجعل في قلبه مصباحاً؛ ولا يعفيه من بذل ما يحب، بل يريه جمال ما سيجد عند الله، حتى يصبح العطاء تحريراً لا خسارة، والتقوى حياةً لا تضييقاً، والتصديق بالحسن نافذةً يرى منها النهاية قبل أن يبلغها.

إن لليسرى مقدمات، وقد ذكرتها السورة بوضوح: ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ﴾. فلا يطلب الإنسان تيسير الطاعة وهو مصرُّ على إمساك نفسه عن كل خير، ولا ينتظر لذة القرب وهو يكرر ما يعده، ولا يسأل الله نور الطريق ثم يغلق كل نافذة يأتي منها

النور. إن الهداية فضل من الله، لكنها تُطلب بصدق الإقبال، والتوفيق هبة، لكنه ينزل على قلب أظهر فقره إلى الله، وطرق الباب، وسار بما يستطيع، وجاهد ما يعوقه عن الوصول.

ومن رحمة الله أن بدايات هذا الطريق قد تكون صغيرة جداً في عين صاحبها: صدقةٌ خفية، أو تنازلٌ عن حق للنفس، أو كفٌّ لأذى، أو صلاةٌ قاوم بها الكسل، أو دمعةٌ خرجت حين تذكر تقصيره، أو كلمة حق قالها وهو خائف، أو باب معصية أغلقه مع شدة تعلقه بها. غير أن هذه الخطوات الصغيرة ليست صغيرة في ميزان التحول؛ فهي تعلن الوجهة، وتكشف أن في القلب حياةً تريد الله، فإذا صدق العبد في خطوته تلقاه لطف الله بالتيشير، فصار ما كان ثقیلاً أخف، وما كان بعيداً أقرب، وما كان متقطعاً عادةً راسخة.

ولا يعني التيسير لليسرى أن المؤمن لا يتعثر؛ فقد يضعف، ويغلبه طبعه، ويخطئ في الطريق، لكن الفرق أن عثرته لا تصبح وطناً، وخطيئته لا تتحول إلى عقيدة يدافع عنها، وابتعاده لا يطفئ فيه الحنين إلى العودة. تظل الحسنى مصدقةً في أعماقه، وتظل التقوى توقظه، ويظل العطاء يحorre من انغلاقه على نفسه، فيعود كلما ابتعد، وينهض كلما سقط، حتى تصبح توباته جزءاً من التيسير الذي يقوده إلى الله.

أما أشد صور العسر فليست قلة المال ولا تعب الجسد، بل أن يعسر على الإنسان فعل الخير، أن يسمع النداء فلا يتحرك فيه شيء، وأن يرى المحتاج فلا يضطرب قلبه، وأن يعرف الحق ثم يجده ثقیلاً على نفسه، وأن تمر عليه مواسم الطاعة دون أن يشعر بأنه خسر شيئاً. تلك قسوة لا تعالجها وفرة الدنيا؛ لأن المصيبة ليست فيما فقدته اليد، بل فيما فقدته القلب من قابلية الاستجابة.

ولهذا كان العطاء أول الطريق؛ لأنه يشقّ في جدار الأنانية نافذةً، ويذكر الإنسان بأنه لم يُخلق ليكون مركز العالم، ويخرجه من عبادة «الأنا» إلى رحابة العبودية لله. حين يعطي يتراجع سلطان المال، وحين يتقي يتراجع سلطان الهوى، وحين يصدق بالحسنى يتراجع سلطان الدنيا، فإذا تحرر من هذه السلطات الثلاث صار مهياً لأن يسير إلى الله خفيفاً، فلا يمسكه مال، ولا يقوده هوى، ولا يتخذه نهايةً عاجلة.

وما أجل أن يكون جزاء هذه الصفات الثلاث تيسيراً يشمل الحياة كلّها؛ فيسر الله للعبد الكلمة الطيبة في لحظة الغضب، والعفو في ساعة القدرة، والصدق حين تكون النجاة الظاهرة في الكذب، والبذل حين ترتجف النفس خوفاً من النقص، والثبات حين تتزاحم الفتن، والتوبة حين يكاد اليأس يغلق الطريق. يصبح الخير كأن له أبواباً تتتابع أمامه، لا لأنه استغنى عن المجاهدة، بل لأن الله بارك مجاهدته الأولى، فجعل كل طاعة تلد أختها، وكل نور يقوده إلى نور.

إن الطاعة لا تبقى فعلاً منفرداً؛ إنها تعيد تشكيل صاحبها. من اعتاد العطاء صار أقدر على رؤية حاجات الآخرين، ومن لازم التقوى رقى إحساسه بمواقع الخطأ، ومن غذى قلبه بالتصديق بالحسنى صغر في عينه بريق العاجلة. وهكذا يتحول العمل من شيء يفعلُه الإنسان إلى شيء يصنع الإنسان؛ يعطي مرةً، ثم يصبح من أهل العطاء، ويتقي في موقف، ثم تصير التقوى بصيرته، ويصدق بالوعد، ثم يغدو الوعد أفقاً يرى الحياة كلّها من خلاله.

وإذا كانت السورة قد بدأت بالليل حين يغشى، فإن هذا النموذج هو نهار النفس حين يتجلى؛ فالعطاء ضوءٌ يبدد ظلمة الشح، والتقوى ضوءٌ يكشف مسالك الهوى، والتصديق بالحسنى ضوءٌ يمتد من الآخرة لينع الدنيا معناها الصحيح. وحين تجتمع

هذه الأنوار في القلب، لا يعود الإنسان أسير اللحظة، بل يعيش في الدنيا بعينٍ ترى الحاضر وعينٍ نتطلع إلى ما عند الله، فيأخذ من الأولى ما يعينه، ويرسل إلى الآخرة خير ما يستطيع.

والسؤال الذي تضعه هذه الآيات أماناً ليس: هل نملك الكثير حتى نعطي؟ بل: هل تحررت قلوبنا بما يكفي لنبدل مما نملك؟ وليس: هل بلغنا أعلى درجات التقوى؟ بل: هل بدأنا نحرس أفعالنا بنظر الله؟ وليس: هل نعرف معنى الحسنى؟ بل: هل نعيش وكأنها حقاً تنتظرنا؟ فالمعرفة التي لا تغير السعي قد تصبح حجةً على صاحبها، أما التصديق الحلي فهو الذي يتحول إلى عطاءٍ وتقوى ومسير.

إن الله لا ينظر إلى حجم ما خرج من اليد وحده، بل إلى حجم القيد الذي انكسر في القلب حين خرج؛ فقد تكون اللقمة من فقيرٍ أعظم من كنزٍ يدفعه غني، لأن الأول اقتطعها من حاجته، والثاني اقتطعها من فائضه. وقد يكون العمل ضئيلاً في أعين الخلق، لكنه عند الله بداية انقلابٍ كامل في حياة صاحبه، لأنه صدر عن لحظة صدقٍ قرر فيها ألا يبقى عبداً لخوفه، ولا سجيناً لشحّه، ولا مكذباً بوعده بلسان الحال.

وهكذا تختصر الآيات الثلاث هندسة النجاة: إيمانٌ يرى الحسنى، وتقوى تضبط الوجهة، وعطاء يثبت أن الرؤية صارت حياة. ثم يأتي وعد الله، لا بلفظ الاحتمال، بل بوعده مؤكد تنفتح فيه الرحمة: ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْيَسْرَى﴾. وكأن الله يقول لعبده: ابدأ نحوي صادقاً بما تستطيع، أخرج من سجن نفسك، ضع قدمك على الطريق، وسأولى تيسير ما بقي؛ فإن الطريق إلى الله لا يُقطع بقوة الإنسان وحدها، وإنما بصدقٍ من العبد تلتقاه عناية الرب.

وفي مقابل هذا الإنسان الذي أعطى واتفق وصدق، ستعرض السورة صورةً أخرى معكوسة: إنساناً قبض يده، واستغنى بنفسه، وكذب بالحسنى، فصار ما ظنه استقلالاً بداية سقوطه، وما حسبه حذراً من الفقر أفقر قلبه، وما توهمه تيسيراً لحياته تيسيراً للعسرى. هناك سنرى كيف يستطيع المال، حين ينفصل عن الإيمان، أن يتحول من وسيلةٍ في اليد إلى حجابٍ على القلب، وكيف يبدأ التردّي قبل لحظة السقوط بوقتٍ طويل.

الفصل الثالث

حِينَ تَقْبِضُ الْيَدُ وَتَسْتَغْنِي الْقَلْبُ وَيَبْدَأُ الطَّرِيقُ إِلَى
الْعُسْرِ

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿١﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٢﴾ فَسَنِيرُهُ لِلْعُسْرِ﴾

في مقابل الصورة المضيئة التي اجتمع فيها العطاء والتقوى والتصديق، تعرض السورة صورة أخرى تنقلب فيها الموازين كلها: يد تقبض بعدما كانت قادرة على الامتداد، ونفس تنوهم الاستغناء وهي أشد ما تكون فقراً، وقلب يكذب بالحسنى لأنه لا يريد أن يرى وراء العاجلة أفقاً يحاسبه على ما جمع ومنع. ولا تنقلنا الآيات إلى إنسان لا يملك شيئاً، بل إلى إنسان يملك ثم يبخل، ويُنح القدرة ثم يحبسها، ويمرّ به الخير فيمنعه من المرور إلى الآخرين، حتى يصبح ما في يده سداً بينه وبين الله، وتتحوّل النعمة التي كان يمكن أن ترفعه إلى ثقلٍ يجره نحو العسرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾؛ والبخل أوسع من الإمساك بالمال، وإن كان المال أوضح ميادينه، فهو انقباض النفس عن أداء الحق مع قدرتها عليه، واحتباس الخير فيها حتى يفسد، ورفضها أن تشارك العالم شيئاً مما أودع الله فيها. قد يبخل المرء بعلمه فيترك الجاهل حائراً وهو قادر على البيان، ويبخل بكلمته فيخذل مظلوماً كان يستطيع نصره، ويبخل بعفوه فيقيم أسوار الخصومة حول قلبه، ويبخل بابتسامته في وجهٍ أنهكه الحزن، ويبخل

بوقته على من يحتاج حضوره، وبخل بالاعتراف بالفضل لأنه يخشى أن يضيء اسم غير اسمه. فالبخل ليس فقر اليد، وإنما ضيق الروح حين ترى كل ما لديها ملكاً خالصاً لها، وتنسى أن النعمة لا تكتمل إلا حين تعبر منها إلى غايتها.

إن البخل لا يحتفظ بالمال وحده، بل يحتفظ معه بخوفه، ويغلق على نفسه وعلى قلقه باباً واحداً؛ كلما ازداد ما عنده ازداد خوفه من نقصانه، وكلما راكم وسائل الأمان اتسعت في داخله احتمالات الفقد، حتى يصير حارساً لما يظنه يحرسه. المال بين يديه، لكنه هو في الحقيقة بين يدي المال؛ يتحرك بأمره، ويفرح لزيادته، ويضطرب لنقصه، ويقيس الناس بما يملكون، ويقيس نفسه بما جمع، فإذا هُدد شيءٌ من رصيده شعر أن ذاته كلها مهددة، لأنه لم يعد يفرق بين ما يملكه وبين ما هو عليه.

والقرآن لا يذم المال في ذاته؛ فالمال نعمةٌ وقوةٌ وأداةٌ إعمار إذا بقي في اليد ولم يتسلل إلى مقام الربوبية في القلب. لكنه حين يصبح مصدر تعريف الإنسان لنفسه، وحين يختصر فيه معنى الأمان والكرامة والقدرة، يتحول إلى صنم صامت لا يحتاج إلى معبدٍ ظاهر؛ يكفي أن يملك خوف صاحبه ورجاءه، وأن يجعله يقدم رضاه على رضا الله، ويمنع الحق خشية نقصانه، ويبرر الظلم حفاظاً على زيادته. وهنا لا يعود البخل تصرفاً اقتصادياً، بل يصبح خلاً في التوحيد العملي، لأن القلب منح الشيء العاجز من الثقة ما لا يجوز أن يمنحه إلا لربه.

ثم تكشف السورة عن الدافع العميق وراء البخل: ﴿وَأَسْتَغْنَى﴾. لم يقل سبحانه: وكان غنياً، فالغنى في ذاته ليس إدانة، وكم من غنيٍّ حمل ماله بأمانة فصار طريقه إلى رضوان الله؛ إنما قال: ﴿وَأَسْتَغْنَى﴾، أي رأى نفسه غير محتاج، وتلبس بوهم الاكتفاء، وتعامل مع النعمة كأنها قوته الذاتية لا فضل ربه، وظن أن ما اجتمع في

يديه يمنحه قدرةً على الاستقلال عن الأمر والنهي والحساب. فالآفة ليست أن يملك، بل أن ينسى وهو يملك؛ وليست أن يقوى، بل أن يجهل مصدر القوة؛ وليست أن تتسع دنياه، بل أن يضيق يقينه حتى لا يرى وراءها رباً أعطى، وحقاً أوجب، وأجلاً يقترب، وحساباً لا يسقط بالتقادم.

الاستغناء أخطر أمراض القلب؛ لأن المريض الذي يشعر بمرضه يطلب العلاج، والفقير الذي يعرف فقره يمد يده إلى باب الغني، أما من توهم السلامة وهو يتأكل من الداخل فلن يبحث عن دواء، ومن تخيل أنه مكتفٍ بنفسه لن يشعر بحاجته إلى الهدى. لذلك كان الافتقار إلى الله بداية كل عبودية صحيحة، وكان شعور العبد بحاجته إلى ربه في أنفاسه وهداياته وثباته ومغفرته من أعظم أبواب النجاة. الإنسان لا يضلّ فقط حين يجهل الطريق، بل قد يضلّ حين يعتقد أنه لا يحتاج إلى من يدهّ عليه.

إن المستغني لا يقول دائماً بلسانه: لا أحتاج إلى الله؛ فقد يؤدي بعض الشعائر، ويتحدث عن الإيمان، لكنه يعيش في قراراته وكأن الله خارج الحساب. إذا نزلت به الشدة عاد إلى أرقامه وعلاقاته وقدراته قبل أن يعود إلى ربه، وإذا اتسع رزقه نسب الفضل إلى ذكائه وحده، وإذا نُصح رأى النصيحة انتقاصاً من كماله، وإذا أخطأ بحث عمن يحمّله خطأه، لأنه لا يريد أن يرى نفسه عبداً ناقصاً محتاجاً إلى المراجعة والتوبة. الاستغناء ليس كلمة كفرٍ صريحةٍ فحسب، بل هيئة نفسٍ ترفض الانكسار للحق.

ومن هنا يتصل البخل بالاستغناء اتصالاً عميقاً؛ فالبخيل يمسك لأنه لا يثق بوعده الله، ويخشى أن يعطي فلا يجد، ويتعامل مع خزائنه المحدودة كأنها مصدر رزقه

الأخير. ولو صدق افتقاره إلى الله لعلم أن الذي رزقه أول مرة قادراً على أن يرزقه بعد العطاء، وأن النعمة التي لا يحرسها الشكر مهددة ولو أحاطها بالأقفال، وأن ما عنده ليس نتيجة استقلاله، بل ثمرة أسباب خلقها الله وأقدار يسرها وأبواب فتحها، وكان يمكن في لحظة واحدة ألا يكون شيء منها.

ثم تصل السورة إلى الجذر الاعتقادي الذي أفسد اليد والنفس معاً: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾. في النموذج الأول كان التصديق بالحسنى هو النبع الذي تدفق منه العطاء والتقوى، وهنا يكون التكذيب بها هو الظلمة التي خرج منها البخل والاستغناء. فمن لم يصدق بأن عند الله خيراً باقياً سيتشبث بما عنده من خير زائل، ومن لم يصدق بالجزاء سيرى العطاء خسارة صافية، ومن لم يصدق بالجنة سيحاول أن يجعل من دنياه جنةً مكتملة ولو بنى راحته على أوجاع الآخرين، ومن لم يصدق أن الله يخلف على المنفق سيعامل كل درهم يخرج منه كأنه جزءٌ يُنتزع من حياته.

والتكذيب بالحسنى قد يبدأ فكرةً في العقل، لكنه لا يلبث أن يصبح سلوكاً في الجوارح، كما أن التصديق بها لا يبقى دعوى في اللسان، بل يظهر في نوع الحياة التي يختارها الإنسان. ولذلك لا تقيس السورة الإيمان بما يقوله صاحبه عن نفسه، بل بما يصنعه وعد الله في علاقته بماله وهواه ومستقبله. قد يزعم الإنسان أنه يصدق بالآخرة، لكنه إذا جعل دنياه الغاية التي يضحي من أجلها بكل قيمة، وإذا لم يقدر على تقديم شيء مما يجب لما عند الله، فإن في سلوكه سؤالاً خطيراً عن مقدار حضور الحسنى في قلبه.

ليس كل ضعفٍ في العطاء تكذيباً صريحاً، فالنفوس تجاهد وتضعف وتقوى، والمؤمن قد يغلبه شحه في موقفٍ ثم يراجع نفسه ويتوب؛ لكن الخطر أن يتحول البخل

إلى فلسفة، وأن يصير الاستغناء موقفًا ثابتًا، وأن يبرر الإنسان انغلاقه حتى لا يعود يشعر بوحز التقصير. عندئذ لا يكون قد وقع في عثرةٍ على الطريق، بل غير وجهه الطريق، لأن القلب الحي قد يذنب لكنه يتألم، وقد يمسك لكنه يستغفر، أما القلب الذي اتخذ التكذيب أصلًا فإنه يَزِنُ الإمساك، ويستهيئ بالبدل، ويرى المتقين ساذجين لأنهم يتاجرون مع غيبٍ لا يراه.

ثم تأتي النتيجة في تناظرٍ مهيب مع نتيجة الفريق الأول: ﴿فَسَنِّيْسِرْهُ لِلْعَسْرَى﴾. ويا لها من عبارةٍ تهز القلب؛ فالإنسان قد يُيسَّر، لكن إلى العسرى، وقد تُفتح أمامه الطرق، لكنها الطرق التي تقوده إلى هلاكه، وقد يجد المعصية سهلةً والظلم قريبًا والمال متكاثرًا، فيحسب ذلك دليل رضا، بينما هو يتدرج في طريقٍ تزداد سهولته الظاهرة كلما ازدادت نهايته عسرًا. ليست كل سهولةٍ كرامة، ولا كل وفرةٍ بركة، ولا كل بابٍ مفتوح دليلًا على أن الله يحب الطريق وراءه؛ فقد يكون انفتاح الباب امتحانًا أو استدراجًا، وقد تكون العقوبة أن يترك الإنسان لما اختاره حتى يمعن فيه دون أن يشعر بثقل القيد.

والتيسير للعسرى لا يعني أن الله أجبر الإنسان ابتداءً على الكفر والبخل، تعالى الله عن الظلم، وإنما يعني أن العبد لما اختار البخل والاستغناء والتكذيب، وأصرَّ على هذه المقدمات، عامله الله بعدله ووكله إلى الطريق الذي أراده، فصار الشر مألوفًا لديه، والخير مستنكرًا، والمعصية خفيفةً على جوارحه، والتوبة ثقيلةً على نفسه. إنه جزاءٌ من جنس اختياره: أغلق قلبه عن النور، فصار الظلام يبيته؛ صدَّ عن الهدى، فازدادت مسالك الضلال تمهّدًا أمامه؛ أبى أن ينحني للحق، فصار الانحدار أسهل عليه من الصعود.

وهنا تظهر خطورة العادة؛ فالإنسان في بدايات المعصية قد يشعر بثقلها، ويرتجف ضميره، ويجد في داخله مقاومةً تدعوه إلى التراجع، فإذا كررها دون توبة تأكلت المقاومة، وخفت صوت الفطرة، وصار ما كان يستعظمه بالأمس أمرًا عاديًا اليوم، ثم ربما صار حقًا يدافع عنه غداً. تلك هي العسرى حين تُيسر: ليست أن يشعر المرء بصعوبة الشر، بل أن يفقد الشعور بصعوبته؛ ليست أن يتعذب بالذنب، بل أن يستريح إليه؛ وليست أن يسقط ثم يبكي، بل أن يسقط ثم يسخر ممن يحذره من السقوط.

وقد تكون العسرى ميسرةً في بدايتها؛ لذةً عاجلة، وريحٌ سريع، ومدحٌ من الناس، واتساعٌ في النفوذ، لكن حقيقتها تنكشف في النهاية. فالطريق لا يُسمى باسم أول خطوة فيه، بل باسم المصير الذي يقود إليه. وكم من طريقٍ بدأ مفروشا بالشهوات ثم انتهى إلى الوحشة، وكم من قرارٍ بدا لصاحبه مريحاً ثم أخذ منه سلامه وكرامته، وكم من مالٍ جمعه الإنسان ليحصن به حياته فصار سبب خوفه وعداوته وتمزق أسرته، ثم تركه خلفه ومضى وحيداً إلى ما قدام.

في المقابل، قد تبدو اليسرى شاقةً في أولها: مقاومة النفس، وإخراج المال المحبوب، وترك اللذة المحرمة، واحتمال أذى الناس في سبيل الحق؛ لكنها تفضي إلى اليسر الحقيقي، حيث يلقي الإنسان قلباً نقياً ورباً راضياً ومصيراً آمناً. وهكذا يعيد القرآن تعريف اليسر والعسر؛ فاليسر ليس ما وافق الهوى في اللحظة، بل ما حسنت عاقبته، والعسر ليس ما شق على النفس أولاً، بل ما انتهى بها إلى الضيق الذي لا مخرج منه.

إن من أشد صور العسرى أن يعيش الإنسان محاطاً بأسباب الراحة وقلبه لا يعرف الراحة؛ أن يملك فراشاً وثيراً ولا يملك نوماً هادئاً، وأن يجمع المال ولا يشعر بالكفاية، وأن يكثر حوله الناس ولا يجد بينهم من يأمن له، وأن يرتفع اسمه في المجالس بينما

يسقط في عيني نفسه كلما خلا بها. فما قيمة أن نئسر للإنسان الدنيا إذا تعسرت عليه نفسه؟ وما معنى أن تنفتح له الخزائن إذا أغلق عنه باب السكينة؟ وما الذي ربحه إذا كسب الأشياء وخسر القدرة على الفرح بها؟

والبخل نفسه عسرٌ حاضر قبل أن يكون سبباً لعسر الآخرة؛ لأنه يجعل الإنسان في خصومة دائمة مع احتياجات الحياة وحقوق الناس. كل محتاج يراه تهديداً، وكل دعوة إلى الإنفاق يشعر أنها اعتداء على ملكه، وكل نعمة عند الآخرين توقظ فيه المقارنة، حتى تضيق به الأرض على اتساعها. أما المعطي فقد وسّع وجوده بما بذل؛ صار له نصيبٌ في ابتسامة اليتيم، وفي شفاء المريض، وفي علم الطالب، وفي فرج المكروب، فكأن حياته تجاوزت حدود جسده وانتشرت في حياة من أحسن إليهم.

ومع ذلك، فإن السورة لا تعرض هذا النموذج لكي تغلق باب الرجاء في وجه من وجد شيئاً من البخل أو الاستغناء في نفسه، بل لتوقظه قبل أن تتحول الصفات العارضة إلى طريقٍ ميسرٍ. ما دام الإنسان يشعر بالخوف من العسرى، ويحاسب نفسه، ويقاوم شهتها، فإن باب العودة مفتوح. يستطيع أن يكسر سطوة البخل بعطاءٍ يبدأ به ولو كان قليلاً، وأن يهدم وهم الاستغناء بسجدةٍ يعترف فيها بفقره، وأن يجدد التصديق بالحسن حين يقرأ وعد الله بقلبٍ حاضر، ثم يثبت صدقه بخطوةٍ عملية تعيد ترتيب علاقته بالدنيا.

إن علاج البخل لا يبدأ من كثرة المال، لأن المال قد يزيد البخل إذا بقي القلب مريضاً، بل يبدأ من تصحيح المعرفة بالله؛ أن يعرف العبد أن خزائن الله لا تنفذ، وأن رزقه لم يكن يوماً صناعة يده وحدها، وأن ما كُتب له لن يمنعه منه عطاؤه، وأن الذي يأمره بالإنفاق هو الذي تكفل برزقه. ويبدأ كذلك من المعرفة بالنفس؛ أن

يدرك أنه راحل، وأن قدرته على البذل فرصة مؤقتة، وأن ما يمنعه اليوم سيتركه غداً قسراً، وأن الموت سيجعله يعطي الورثة كل ما بخل ببعضه على المحتاجين، دون أن يملك اختيار المستحق أو ينال أجر البذل.

وما أبلغ المفارقة: البخيل يمتنع عن العطاء لكيلا ينقص ماله، لكنه ينقص بذلك إنسانيته؛ ويطلب بالاستغناء أن يحمي نفسه من الحاجة، فيزداد افتقاراً إلى ما جمع، ويكذب بالحسنى لينجو من تكاليف الإيمان، فيتجه إلى العسرى التي لا نجاة فيها. إنه يريد اليسر بطريق العسر، ويريد الغنى بطريق الفقر، ويريد الأمان بالتعلق بما لا يأمن على نفسه من الزوال؛ فيعاقبه الوهم من داخله قبل أن تأتيه العاقبة من أمامه.

ولهذا لم تقل السورة: فسُعِّرَ عليه، بل قالت: ﴿فَسَيِّسِرْهُ لِلْعُسْرَى﴾، لتكشف المأساة الدقيقة: أن يتعاون المرء مع أسباب هلاكه وهو يظن أنه يحسن صنعاً، وأن يصبح الطريق المنحدر سهلاً تحت قدميه فلا يشعر بالخطر إلا حين تتعذر العودة. فالهاوية لا تبدأ عند حافتها، بل تبدأ يوم أحب الإنسان السير إليها، والعسرى لا تفاجئه في النهاية، بل تنمو في اختياراته كلما بخل واستغنى وكذب.

وإذا كانت اليسرى تبدأ من قلب عرف فقره إلى الله، فإن العسرى تبدأ من قلب نسي هذا الفقر؛ وإذا كانت الأولى تجعل الإنسان خفيفاً بما أعطى، فإن الثانية تثقله بما أمسك؛ وإذا كان المصدق بالحسنى يرسل ماله أمامه، فإن المكذب بها يظل محاطاً بماله حتى يتركه وراءه. هكذا لا تكتفي السورة بوصف الطريقتين، بل تكشف المفارقة بين ظاهرهما وحقيقتهما: المعطي يبدو فاقداً وهو الراجح، والبخيل يبدو محتفظاً وهو الخاسر؛ المتقي يقيّد شهوته فيتحرر، والمستغني يطلق شهوته فيُسْتَعْبَدُ؛ المصدق يؤجل بعض لذته فيبلغ الرضا، والمكذب يعجل لذته فتتعجل إليه الوحشة.

وبعد أن كشفت السورة عن التيسير إلى اليسرى والتيسير إلى العسرى، ستضع المال أمام لحظة الحقيقة، لحظة التردّي التي تسقط فيها الأرقام والألقاب والحصون، فلا يبقى للإنسان إلا ما قدّم: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾. هناك ستكشف النهاية المريرة لوهم الاستغناء، حين يقف الإنسان في أشد لحظاته فقرًا، ويكتشف أن الشيء الذي من أجله بخل، وبه استغنى، وبسببه كذب، لا يستطيع أن يهب له نفسًا إضافيًا، ولا يؤخر عنه سقوطًا، ولا يشتري له نجاة.

الفصل الرابع

حِينَ يَتَرَدَّى الْإِنْسَانُ وَيَسْقُطُ وَهُمْ الْمَالِ

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿وَأَنَّ لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾

تصل السورة هنا إلى اللحظة التي تساقط فيها الأوهام دفعةً واحدة، وتُختبر فيها الأشياء خارج الدعاية التي أحاطها الإنسان بها طوال حياته؛ لحظةً لا يُسأل فيها المال عن مقداره، بل عن قدرته على إنقاذ صاحبه، ولا تُعرض الثروة بوصفها رفقاً مشيراً للإعجاب، بل بوصفها قوةً مزعومةً تقف أمام الحقيقة لكي ينكشف عجزها الكامل: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾. إن المال الذي ملأ العين، واستولى على القلب، وأقنع صاحبه أنه في مأمن، سيقف عند الحافة عاجزاً عن أن يمسك به، وسيبقى في الأرض حين يهبط ملكه إلى المصير منفرداً، كأن العلاقة الطويلة بينهما لم تكن إلا صفةً مؤقتةً انقطعت عند أول اختبار حقيقي.

لم تقل الآية: وما ينفعه ماله، بل قالت: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾؛ والغنى هو الكفاية التي ترفع الحاجة وتحمي صاحبها من الافتقار، فكأن الآية تضرب الوهم في مركزه: لقد استغنى بالمال، فهل يستطيع المال أن يغني عنه؟ لقد جعل منه حصنه، فهل يردّ عنه لحظة التردّي؟ لقد منعه عن مستحقّيه خشية أن يقلّ، فهل يمنع عنه الآن ما يخاف؟ والجواب الذي تحمله صيغة الاستفهام المنكر أبلغ من كل تصريح: لن يغني عنه شيئاً؛

لأن المال لم يكن يوماً مصدر الحياة، ولا مالك الأجل، ولا سيد المصير، وإنما كان وسيلةً عابرةً اختبر الله بها القلب، ليظهر أيمسكها عبداً شاكراً أم يمسك بها عبداً أسيراً.

و﴿تَرَدَّى﴾ كلمةٌ قصيرة، لكنها تحمل مشهداً كاملاً من السقوط والانحدار والنهاية. قد يكون التردّي سقوطاً في الهلاك والموت، وقد يكون سقوطاً في النار، وهي دلالةٌ تتسع للمصير الذي ينتهي إليه ذلك السعي؛ وفي الكلمة كذلك إيحاءٌ بأن الإنسان لم يصل إلى الهاوية بقفزة مفاجئة، بل ظلّ يخدر نحوها بما اختار، حتى جاءت اللحظة التي انكشف فيها اتجاه الطريق. فكل بخلٍ كان درجةً في النزول، وكل وهم استغناءً كان خطوة، وكل تكذيبٍ بالحسنى كان قطعاً لحبلٍ من حبال النجاة، حتى إذا تردّى لم يكن سقوطه حادثاً بلا مقدمات، بل ظهوراً لما كان يجري في داخله منذ زمن.

والتردّي لا يبدأ دائماً عند الموت؛ فقد يتردّي الإنسان في حياته وهو يمشي بين الناس مرفوع الرأس، حين يسقط من مقام الكرامة إلى عبودية الطمع، ومن سعة الفطرة إلى ضيق الأنانية، ومن شرف الصدق إلى ذل التبرير. قد تزداد أمواله بينما يتردّي قلبه، ويرتفع منصبه بينما يهبط ضميره، ويتسع بيته بينما تضيق روحه، ويكثر المصفقون حوله بينما يخسر احترامه لنفسه. ليست كل حركةٍ إلى الأعلى صعوداً، فربما ارتفع الإنسان في أعين الناس وهو يهوي عند الله، وربما خسر شيئاً من دنياه وهو يصعد في مراتب الحق والنقاء.

غير أن السقوط الأكبر هو ذلك الذي لا تعقبه فرصة مراجعة، حين تبلغ الروح أجلها، وينتهي زمن الاختيار، وتتحول الدنيا كلها إلى صفحة مطوية. عندها لا يستطيع صاحب المال أن يشتري دقيقةً واحدة ليصحح بها ما أفسد، ولا أن يرسل إلى فقيرٍ شيئاً مما منعه عنه، ولا أن يحوّل بعض خزائنه إلى حسنة، ولا أن يستدرك كلمة حق

سكت عنها محافظةً على مصالحه. لقد انتهى الزمن الذي كان المال فيه قابلاً لأن يصبح نجاة، وبقي المال كما هو، لكن القدرة على تحويله إلى عمل صالح قد زالت.

هذه هي الخسارة التي لا ينتبه إليها كثيرون: ليست المصيبة أن يذهب المال من يد الإنسان، بل أن يبقى المال وتذهب فرصة الانتفاع الأبدي به؛ أن يموت صاحبه غنياً في سجلات الأرض، فقيراً في سجل الآخرة؛ أن يترك خلفه ما يتنازع عليه الورثة، ويحمل معه حساب ما جمع ومنع؛ أن يتعب عمره في بناء خزائن لا يدخلها، ثم يدخل قبراً لم يهيئ له من النور ما يكفي وحشته. كان المال في يده فرصة، فلما لم يضعه في موضعه صار المال نفسه شاهداً على الفرصة التي أهدرها.

والقرآن لا يريد من الإنسان أن يكره المال أو يهجر عمارة الدنيا، وإنما يريد أن يصحح موقع المال في قلبه؛ أن يكون خادماً لا سيّداً، وطريقاً لا غاية، وأمانة لا هوية، وجسراً يعبر به إلى الله لا سوراً يحتجب خلفه عنه. يستطيع المؤمن أن يملك المال الكثير دون أن يملكه المال، إذا عرف مصدره وحقه ووظيفته ونهايته، وإذا بقي قلبه مستغنياً بالله مفتقراً إليه، لا يتضخم بما جاء ولا يتحطم بما ذهب.

أما حين يتحول المال إلى معنى الذات، يصبح فقده موتاً معنوياً، ويصبح إنفاقه تهديداً، ويصبح الفقير في عين صاحبه خصماً يريد اقتطاع شيء من وجوده. لذلك كان العطاء تزكيةً لا للمال وحده، بل للإنسان من هذا الالتحام المرضي بما يملك؛ يعطي ليتذكر أن يده أعلى من جيبه، وأن روحه أوسع من رصيده، وأن قيمته لا تنقص بما يخرج منه، بل تزداد بمقدار ما يتحرر من عبادة ما بين يديه.

كم من إنسانٍ أضاع صحته ليجمع المال، ثم أنفق المال لعله يستعيد بعض صحته؛ وأضاع أسرته وهو يزعم أنه يعمل من أجلها، ثم اكتشف أن البيوت لا تسكنها الأثاثات الفاخرة وحدها، بل يسكنها الحضور والرحمة والوقت؛ وأهدر سكينته ليحصل على أسباب الراحة، فلما امتلكها لم يجد في داخله مكاناً تستقر فيه الراحة. لقد أراد أن يغنيه المال، لكنه لم يسأل نفسه: عن أي فقر سيغنيني؟ قد يغني عن بعض حاجات الجسد، لكنه لا يغني عن حاجة القلب إلى المعنى، ولا عن حاجة الروح إلى الله، ولا عن حاجة المذنب إلى المغفرة، ولا عن حاجة المحتضر إلى حسن الخاتمة.

المال قادرٌ على شراء الدواء، لكنه لا يشتري الشفاء؛ ويقدر على بناء الفراش، لكنه لا يضمن النوم؛ ويجمع حول صاحبه الوجوه، لكنه لا يهب له المحبة الصادقة؛ ويؤخر بعض صور التعب، لكنه لا يمنع الشيخوخة والموت؛ وقد يوصل الإنسان إلى أبواب أصحاب النفوذ، لكنه لا يفتح له باباً أغلقه الله. وحين يعرف المرء حدود المال ينتفع به دون أن يعبد، أما حين يمنحه قدرةً ليست له، فإنه يحمله ما لا يطيق ثم ينهار معه عند أول حقيقةٍ لا تخضع للبيع والشراء.

وفي قوله: ﴿مَالَهُ﴾ إضافةٌ تلامس الوهم الذي استقر فيه؛ كان يقول: مالي، ويشعر أن هذه الإضافة تمنحه ملكاً ثابتاً، لكنها إضافةٌ مؤقتة؛ فما كان «ماله» سيصير بعد موته «مال ورثته»، ثم ينتقل من يدٍ إلى يد، بينما يبقى هو مسؤولاً عما كسب وكيف أنفق. إن الملكية في الدنيا عقدٌ قصير الأجل، والموت هو اللحظة التي يسترد فيها الوجود كلَّ ما أعاره للإنسان؛ جسده الذي قال: جسدي، وبيته الذي قال: بيتي، وماله الذي قال: مالي، كلها تنفصل عنه، ولا يبقى من الإضافات إلا عمله: ما قدم، وما أخر، وما أحسن، وما أساء.

ثم تنتقل السورة من سقوط وهم المال إلى إقامة الحجة بالهدى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾. كأن إنساناً قد يسأل بعد الحديث عن اليسرى والعسرى: كيف أعرف الطريق؟ وأين الدليل؟ وهل ترك الإنسان لتجارب عقله المحدود وأهوائه المتنازعة؟ فيأتي الجواب مطمئناً حاسماً: إن الله لم يخلق الإنسان ثم يتركه تائهاً في مفترق الطرق، بل تكفل ببيان الهدى، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الآيات في الأنفس والآفاق، وأودع في الفطرة قابلية معرفة الحق، ثم أعطى العقل قدرة النظر والتمييز.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ليست وجوباً يفرضه أحدٌ على الله، تعالى سبحانه، وإنما هي خبرٌ عن فضل أوجه الله على نفسه بمشيئته ووعدته وحكمته؛ فقد تولى بيان الطريق رحمةً بعباده، ولم يكلّفهم الوصول إليه دون بصيرة. أرسل إليهم من يقول: هذا سبيل اليسرى وهذه مقدماتها، وهذا طريق العسرى وهذه نهايته؛ فأصبح الضلال بعد البيان اختياراً، وصار السير إلى الهلاك بعد التحذير مسؤولية، ولم يعد لأحد أن يقول: لم أعرف أن البخل يقود إلى العسرى، ولا أن الاستغناء وهم، ولا أن المال يعجز عند التردّي.

الهدى في أصله بيانٌ ودلالة، والله هو الذي يبين للناس طريق الحق، وهو سبحانه الذي يوفق من صدق في طلبه ويشرح صدره لقبوله. فالإنسان لا يخلق الهداية في قلبه بقوته، لكنه لا يعفى من طلبها؛ يسمع النداء، وينظر في الدليل، ويجاهد هواه، ويدعو ربه، ثم يهيه الله من التوفيق بقدر ما يعلم من صدق اقتقاره وإقباله. ولهذا يجتمع في الهداية فضل الله ومسؤولية العبد دون تناقض: الله هو الهادي، والعبد مأمورٌ بأن يستجيب ويسعى، ولا قيام لسعيه إلا بعون ربه.

وما أعظم رحمة الله في أن الهدى منه؛ فلو كان الوصول إليه متوقفاً على ذكاء الإنسان وحده لهلك البسطاء، ولو كان حكراً على أصحاب المال حُرُم الفقراء، ولو كان ثمرة القوة انفرد به الأقوياء، لكنه فضلٌ يضعه الله في القلوب التي تخلص في طلبه. قد يهتدي أُمِّيُّ إلى حقيقةٍ يضل عنها صاحب مكتبة، ويبلغ فقيرٌ من اليقين ما يعجز عنه صاحب سلطان، لأن المسألة ليست تكديساً للمعلومات بقدر ما هي صدقٌ مع النور حين يظهر.

لقد جعل الله طريق الهدى واضحاً في أصوله: توحيدٌ يحرر القلب، وعبادةٌ تصل العبد بربه، وتقوى تحرس خطاه، وعدلٌ يصون حقوق الناس، ورحمةٌ توسع إنسانيته، وعطاءٌ يطهره من الشح، وتصديقٌ بالآخرة يعيد ترتيب أولوياته. لكن المشكلة ليست دائماً في غياب البيان، بل في الحجب التي يضعها الإنسان بينه وبين ما بين له؛ فقد يرى الطريق ثم يرفضه لأنه لا يوافق مصلحته، ويفهم الحق ثم يثقله الكبر عن اتباعه، ويعرف واجبه ثم يؤجله حتى يضعف صوته في قلبه.

ومن رحمة الله كذلك أن يجعل في الحياة تنبيهاتٍ تعيد الإنسان إلى الهدى كلما غفل: موتاً يمر قريباً منه فيذكّر بهايته، وفقداً يكشف له هشاشة ما تعلّق به، وألماً يهدم وهم الاستغناء، وآيةٌ يسمعها في لحظة فتشق جدار قلبه، وموقفاً يرى فيه أن المال لا يرد قدراً ولا يحفظ محبوباً. ليست كل هزّة في حياة الإنسان شراً خالصاً؛ فربما كان انكسار الوهم بداية الهداية، وربما أخذ الله منه شيئاً صغيراً لينقذه من أن يخسر نفسه كلّها.

والهدى الذي تكفّل الله ببيانه لا يقتصر على معرفة الاتجاه، بل يمتد أثره إلى القدرة على رؤية الأشياء بأحجامها الحقيقية؛ فيرى المؤمن المال وسيلةً لا ربّاً، والدنيا

مرحلة لا مستقرًا، والموت عبورًا لا فناءً، والآخرة حياة لا قصةً بعيدة. وحين تستقيم الرؤية يستقيم السعي؛ لأن كثيراً من الانحرافات العملية تبدأ من خطأ في النظر: يضحك الإنسان العاجل حتى يحجب الآجل، ويعظم الخلق حتى ينسى الخالق، ويرى ما في يده ولا يرى من وضعه فيها.

ثم تأتي الآية الجامعة التي تضع الوجود كله في ملك صاحبه: ﴿وَإِن لَّنَا لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾. إن الأولى لله ملكاً وتديراً، والآخرة لله حكماً وجزاءً؛ فلا يخرج الإنسان من سلطان الله حين يولد، ولا ينتقل بالموت إلى أرض لا يملكها الله، ولا يستطيع أن يبحث عن منطقة في الوجود يهرب إليها من ربه. كل ما ظنه ملكاً له قائم في ملك الله، وكل قوة استند إليها مخلوقة لله، وكل زمن تحرك فيه محكوم بأمر الله، وكل مصير ينتظره راجع إلى حكمه.

وقد قدمت الآية الآخرة على الأولى: ﴿لَلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾، مع أن الأولى تسبقها زمناً في تجربة الإنسان؛ لأن سياق السورة يريد أن يرفع الآخرة إلى موضعها في الوعي، وأن يكسر الترتيب الذي صنعتته الغفلة، حيث تصبح الدنيا في القلب أولاً وآخراً، وتحول الآخرة إلى هامش مؤجل. فالآخرة هي دار القرار، وهي التي تنكشف فيها القيمة النهائية للسعي، وهي الحسنى التي صدق بها أهل اليسرى وكذب بها أهل العسرى؛ لذلك تقدمت هنا لتقول للإنسان: لا تجعل ما يسبق زمناً أعظم مما يبقى أبداً.

وإذا كانت الآخرة والأولى لله، فمن يستغني الإنسان، وبماذا؟ كيف يستغني بمالٍ يملكه الله، في دنيا يملكها الله، عن ربٍ يملك دنياه وآخرته؟ إنها مفارقة الوهم في أوضح صورها: أن يأخذ العبد شيئاً من خزائن سيده، ثم يجعل ذلك الشيء وسيلةً للاستغناء عن السيد! إن كل ما يستند إليه المستغني شاهدٌ على افتقاره؛ فالمال لم

يخلقه، والعقل لم يمنحه لنفسه، والصحة لا يضمن بقاءها، والفرص لم يصنع توقيتها، والهواء الذي يتنفسه لا يملك أن يأمره بالوجود لحظة واحدة.

وحين يستقر في القلب أن الله الأولى والآخرة، يتحرر الإنسان من الخوف المبالغ فيه على نصيبه؛ فالذي يملك الدارين هو الذي يرزقه، والذي أمره بالعطاء هو الذي أعطاه، والذي وعده بالحسنى قادرٌ على إنجاز وعده. لا يعود البذل قفزةً في المجهول، بل معاملةً مع مالك الوجود، ولا تعود التقوى انسحاباً من الحياة، بل انسجاماً مع حكم صاحب الحياة، ولا يعود الموت انتزاعاً مفاجئاً من مُلك الإنسان، بل انتقالاً من دار الله الأولى إلى داره الآخرة.

والله سبحانه لا يحتاج إلى مال الإنسان حين يأمره بالعطاء؛ فهو مالك الأولى والآخرة، غنيٌّ عن العالمين، وإنما يريد أن يطهر المعطي ويحرره ويهيئه للقائه. الفقير الذي يأخذ الصدقة ينتفع بما يصل إلى يده، لكن المعطي ينتفع بما يخرج من قلبه من شجٍّ وتعلّقٍ ووهم استغناء. إن الله يفتح للغني باب الفقير لا ليستكمل خزائن الرب، تعالى الله، بل ليستكمل العبد إنسانيته، وليدرك أن النعمة امتحان حركة لا امتحان حيازة فحسب.

ومن عرف أن الدنيا لله لم ينازع الله في حكمه، ولم يتعامل مع الشريعة كأنها تدخل في ملكه الخاص؛ فهو وماله وعمره وطاقته كلّها لله. ومن عرف أن الآخرة لله لم يطلب النجاة عند غيره، ولم يظن أن جاهاً أو نسباً أو ثروةً تستطيع أن تعيد تشكيل العدل الإلهي لمصلحته. هناك لا تُشترى الأحكام، ولا تتبدل الحقائق تحت ضغط النفوذ، ولا يقف المال محامياً عن صاحبه؛ وإنما يحضر العمل شاهداً، ويحكم الله بالحق، ويظهر للخلق أن الملك كان له منذ البداية وإن غفلوا.

هذه الآيات الثلاث تعيد الإنسان إلى جمعه الحقيقي دون أن تهينه؛ تنزع عنه وهم الألوهية لتعيد إليه كرامة العبودية. تقول له: مالك لا يغني عنك إذا ترديت، لكن رب المال قد هداك قبل أن تتردى؛ والدنيا ليست لك، لكن الله استخلفك فيها لترزع آخرتك؛ والآخرة ليست بيدك، لكن طريقها قد بين لك، وبابها ما زال مفتوحاً ما دمت حياً. ليست الحقيقة أن الإنسان عاجزٌ فحسب، بل إن وراء عجزه رباً هادياً مالكاً رحيماً، ومن عرف فقره إليه لم يعد فقره هاوية، بل صار باباً إلى الغنى به.

إن الخوف كله يجتمع في أن يتردى الإنسان بعد أن بين له الهدى، والرجاء كله يجتمع في أنه يستطيع قبل التردّي أن يعيد توجيه سعيه. يستطيع المال الذي لم يكن يغني عنه أن يصبح، إذا بذله مخلصاً، شاهد نجاة؛ ويستطيع القلب الذي دخله الاستغناء أن يعود إلى مقام الافتقار، ويستطيع من مشى خطوات نحو العسرى أن يتوقف، وينظر إلى نور الهدى، ويبدأ طريقاً آخر. ما دام باب العمل مفتوحاً، فليس الماضي قدراً أبدياً، والتوبة ليست إنكاراً لما حدث، بل تحريراً للمستقبل من أن يكون نسخةً منه.

وبعد أن قررت السورة أن الهدى على الله، وأن الآخرة والأولى له، تنتقل إلى الإنذار الذي لا يبقى بعده عذر: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾. فالذي يملك الدارين هو الذي يخبر عن مصير الطريقين، والذي تكفل بالهدى هو الذي يحذر من العسرى، والإنذار ليس تهديداً منفصلاً عن الرحمة، بل هو أحد أعظم وجوهاها؛ لأن الرحمة لا تترك الإنسان يسير مبتعثاً إلى الهاوية، وإنما تصرخ في قلبه قبل السقوط: توقف، فما زال الطريق قابلاً لأن يتغير، وما زالت اليد قادرة على أن تعطي، والنفس قادرة على أن تثقي، والقلب قادراً على أن يصدق بالحسنى.

الفصل الخامس

نَارٌ تَلْظَى حِينَ يَصِيرُ التَّكْذِيبُ إِعْرَاضًا

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْظَى ۖ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

بعد أن أقام الله دلائل الهدى، وكشف اختلاف السعي، وبين طريق اليسرى وطريق العسرى، وأسقط وهم المال، وقرر أن له الآخرة والأولى، يأتي الإنذار صريحاً لا يحجبه رمز، ولا تخفف من وقعه عبارة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْظَى﴾. لقد انتهى مقام التلميح، وظهرت نهاية الطريق الذي بدأ بالبخل والاستغناء والتكذيب؛ فإذا بالعسرى التي بدت في الدنيا اختياراً مريحاً تتحول في الآخرة إلى نارٍ تتوقد، وإذا بالإنسان الذي فرّ من تكاليف الهدى يواجه عاقبةً لا يستطيع الفرار منها، وإذا باللذة العاجلة التي استرخص في سبيلها الحق تصبح لحظةً صغيرةً مطويةً أمام شقاءٍ لا تقوى النفس على تصوره.

والإنذار في القرآن ليس إرهاباً للإنسان ولا إغلاقاً لأفق الرجاء، بل رحمةٌ توظفه قبل أن يصبح المصير واقعاً لا يُردّ؛ فالطريق الذي لا توجد فيه لافتة تحذر من الهاوية طريقٌ خادع، والطبيب الذي يخفي عن مريضه خطورة الداء لا يرحمه، ومن يرى النار تقترب من بيتٍ نائمٍ أهله ثم يصمت ليس رفقاً بهم. إن الله ينذر عباده لأنه لا يريد لهم أن يهلكوا على غفلة، ويصف لهم النار وهم في زمن القدرة على النجاة منها،

ويكشف لهم النهاية قبل بلوغها، حتى يكون خوفهم الآن جسراً إلى الأمان، وحتى تتحول رهبة المصير إلى يقظةٍ تصلح السعي.

ومن تمام رحمة الله أن الإنذار جاء بعد الهدى، فلم يحذرهم من نارٍ دون أن يبين لهم سبيل النجاة منها، ولم يذكر العاقبة قبل أن يشرح مقدماتها. قال لهم: من أعطى واتقى وصدق بالحسنى يسهِّر الليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى يسهِّر للعسرى، ثم أعلن أن الهدى عليه سبحانه، وأن له الآخرة والأولى؛ فلما اكتملت الحجة جاء الإنذار. وهكذا لا يعذب الله أحداً بغير بيان، ولا يأخذ عبداً قبل إقامة الحجة، ولا يجعل المصير غامضاً ثم يحاسب الناس على جهلهم به، بل يرسل النور أمامهم، ويفتح باب العودة، ويكرر التنبيه، حتى لا يبقى الهلاك إلا اختياراً أصرَّ عليه صاحبه بعدما عرف الطريق.

وفي قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ خطابٌ مباشر يهدم المسافة التي قد يصنعها القارئ بينه وبين الآيات؛ لم يقل: فأنذرتهم، كأن الحديث عن قومٍ مضوا لا علاقة لنا بهم، بل جاء الخطاب موجهاً لكل من تبلغه الرسالة: أنذرتكم أتم، في أموالكم التي قد تبخلون بها، وفي نفوسكم التي قد توهم الاستغناء، وفي قلوبكم التي يتهددها التكذيب، وفي أعماركم التي تتحول كل لحظةٍ منها إلى سعي. ليست النار خبراً عن مستقبل غرباء، وإنما احتمالٌ يقف عند نهاية كل طريقٍ يحمل صفات العسرى، ما لم يقطع الإنسان سيره بالتوبة والعودة.

ثم يقول سبحانه: ﴿نَارًا تَلْفَى﴾. والتلفي اشتداد التوقد والالتهاب؛ نارٌ لا تخمد، ولا يفترو وجهها، ولا تترك لمن يصلها لحظةً يتوهم فيها أن العذاب قد انتهى. واللفظة، بإيقاعها وصورتها، تكاد تنقل إلى القلب مشهد اللهب وهو يعلو ويتحرك، فلا تبدو النار

جماداً ساكناً، بل حقيقةً مهيبةً متوقدةً تنتظر من أصر على الطريق إليها. وإذا كان الليل في أول السورة يغشى في سكون، فإن النار هنا تلتظى في حركة؛ ظلام التكذيب الذي اختاره القلب في الدنيا لم يبقَ ظلمةً باردة، بل انقلب في الآخرة لهباً يكشف الحقيقة ويذيق صاحبها عاقبتها.

ولم يأت ذكر النار لينح المؤمن قسوةً يتشفى بها في مصائر الخلق، بل لينحه خوفاً من نفسه ورحمةً بالناس. من عرف معنى النار خاف أن تقوده خطيئته إليها، ولم يأمن مكر نفسه، ولم يجعل من الصلاح وساماً يتكبر به؛ ومن صدق بالإنذار لم يستطع أن يرى إنساناً يسير إلى الهلاك ثم يشمت به، بل يدعوه ويترفق به ويتمنى نجاته. إن الوعي بالآخرة لا يصنع قلباً متعالياً، وإنما يصنع قلباً يرتجف من المسؤولية؛ لأنه يعرف أن الثبات فضل، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء على الوجه اللائق بجلاله سبحانه، وأن العبد محتاجٌ في كل لحظة إلى الهداية والرحمة وحسن الخاتمة.

إن النار في التصور القرآني ليست صورةً أدبيةً لإثارة الشعور، ولا رمزاً نفسياً محضاً يمكن تجريده من حقيقته، بل هي حقٌّ من عالم الغيب أخبر الله به، وهو سبحانه أصدق القائلين. غير أن الإيمان بحقيقتها لا يمنع تدبر الصلة العميقة بينها وبين الأعمال التي تقود إليها؛ فالجزاء من جنس المسار، والنار الكبرى تسبقها في الدنيا نيرانٌ صغيرة يشعلها الإنسان في ضميره وحياة الآخرين: نار الطمع التي لا تشبع، ونار الحسد التي تأكل صاحبها، ونار الظلم التي تحرق المجتمعات، ونار الشهوة إذا انفلتت من كل قيد، ونار الأنانية التي تترك الضعفاء في البرد والجوع بينما القادرون محاطون بالفائض.

وليس معنى ذلك أن نار الآخرة مجرد امتداد نفسي لهذه الآلام، فهي حقيقةً مستقلة أخبر بها الوحي، ولكن أعمال الإنسان تحمل في باطنها قابلية تلك العاقبة، وإن لم يرها بعينه في الدنيا. كما تحمل البذرة شجرةً كاملة لا تظهر فيها للعين، تحمل الخطيئة المصّر عليها مصيراً لا يظهر للغافل عند اقترافها. يرى لذتها العابرة ولا يرى النار المختبئة في نهايتها، كما يرى المؤمن ألم المجاهدة ولا يرى بعينه رضوان الله المحتجى في عاقبتها؛ وهنا يقع الامتحان: أصدق الإنسان بالحسنى وبالإنذار قبل أن يصيرا مشاهدة، أم ينتظر سقوط الحجاب حين لا ينفع التصديق؟

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾؛ وصلى النار هو دخولها ومقاساة حرها. ولا يراد بالآية نفي أن يعاقب عصاة الموحدين بما يشاء الله عدلاً أو يعفو عنهم فضلاً، فقد دلت نصوص الوحي الأخرى على تفصيل أحوال أهل المعاصي، وإنما السياق فيمن يصلها الصلي الكامل الملازم الذي يليق بوصف الأشقى؛ ذلك الذي جمع التكذيب والتولي، فانقطع عن أصل النجاة وأعرض عن الهدى بعد بلوغه. فالقرآن يفسر وصفه في الآية التالية: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

و«الأشقى» ليس إنساناً فرض عليه الشقاء دون اختيار، ولا عبداً أغلق الله عنه الباب وهو يطلبه صادقاً، بل هو من سلك أسباب الشقاء، وغذى التكذيب في نفسه، ثم تولى بجوارحه عن مقتضى الحق. لقد جاءه الهدى الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾، لكنه لم يقابله بالافتقار والسؤال، بل قابله بوهم الاستغناء؛ وجاءته الحسنى فوضع بينها وبين قلبه حجاب التكذيب؛ وجاءه الإنذار فأدار له ظهره. فالشقاء لم يهبط عليه من طريق مجهول، وإنما صنع له طريقاً من اختياراته حتى صار هو «الأشقى».

وفي التعبير بصيغة التفضيل إشارةً إلى الشقاء البالغ الذي لا يشبه ما يسميه الناس شقاءً في الدنيا. قد يسمون الفقير شقيًّا لقلة ماله، والمريض شقيًّا لألمه، والمبتلى شقيًّا لما نزل به، لكن مقاييس الوحي تعيد تعريف الشقاء: ليس الأشقى من قلّ نصيبه من متاع زائل، بل من كذّب وتولى حتى خسر نفسه عند الله. قد يعيش المؤمن فقيرًا متعبًا ثم ينتهي إلى الرضا، فأبي شقاءً بقي بعد الرضا؟ وقد يعيش المكذب غنيًّا منعّمًا ثم يصير إلى النار، فأبي سعادةٍ كانت تلك التي انطفأت عند أول أبواب الأبد؟

إن الدنيا لا تكشف دائمًا حقيقة السعيد والشقي؛ فقد يضحك الشقي طويلاً وتبكي عيون الصالحين، وقد تتسع للمكذب الأسباب وتضيق على المؤمن الأرض، لكن السورة تعلمنا ألا نحكم على القصة من فصلها القصير. السعادة ليست شعورًا لحظيًا ولا وفرةً عابرة، بل سلامة العاقبة، والشقاء ليس ألم الطريق، بل ضياع الوجهة. كم من ألم حمى صاحبه من النار، وكم من راحةٍ قادت به إليها؛ وكم من منعٍ أعاده إلى ربه، وكم من عطاءٍ زاده استغناءً وتوليًّا.

ثم تشرح الآية حقيقة الأثقى بصفتين متلازمتين: **﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾**. التكذيب موقف القلب من الحقيقة، والتولي موقف الإرادة والجوارح منها؛ كذّب في الداخل، ثم أعرض في الخارج، فلم يكتفِ بأن يغيب اليقين عن قلبه، بل حوّل غيابه إلى اتجاهٍ كامل في الحياة. وقد يقع التولي دون أن ينطق الإنسان بكلمة التكذيب؛ يسمع أمر الله فيتجاهله، ويعرف الحق فلا يتبعه، وتأتيه الموعظة فيشغل نفسه عنها، ويفتح له باب التوبة فيؤجل الدخول. لسانه لا يقول: هذا باطل، لكن حياته تقول: لا يعنيني.

وهنا تكمن إحدى أخطر صور التكذيب العملي؛ فقد يقر الإنسان بأن الموت حق، ثم يعيش كأنه لن يموت، ويشهد بأن الآخرة حق، ثم يجعلها أقل أولوياته، ويعترف

بأن المال مال الله، ثم يمنع حق الله فيه، ويقول إن الهدى في الوحي، ثم يحتكم في اختياراته إلى هواه وحده. هناك مسافةٌ قد تتسع بين عقيدة اللسان وعقيدة السلوك، وسورة الليل لا تسمح للإنسان أن يحتجّ خلف عباراته؛ لأنها تردّه إلى سعيه: ماذا تفعل الحقيقة التي تقول إنك تصدق بها في يدك وقلبك وطريقك؟

والتولي أشد من مجرد الغفلة العابرة؛ إنه الإعراض المقصود الذي يدير فيه الإنسان ظهره للنور لأنه لا يريد أن يدفع ثمن رؤيته. فالحق حين يتجلى يطالب صاحبه بالتغيير، وبعض الناس لا يكرهون وضوح الدليل بقدر ما يكرهون التبعة التي يفرضها عليهم؛ يعرف أحدهم أن العطاء حق لكنه يريد الاحتفاظ بالمال، ويعرف أن التواضع واجب لكنه لا يريد النزول عن عرش الأنا، ويعرف أن التوبة نجاة لكنه يخاف أن يفارق لذته. فيبدأ بتجنب صوت الحق، ثم يبحث عن تفسيرٍ يبرر إعراضه، ثم قد ينتهي إلى تكذيب الحقيقة نفسها كي يريح نفسه من لومها.

إن الإنسان لا ينتقل عادةً من الإيمان إلى الإعراض الكامل في لحظة؛ يبدأ الأمر بتولٍّ صغير: صلاة يؤخرها بلا مبالاة، وحقٍّ يمنعه، وموعظة يغلق قلبه عنها، وخطيئة يرفض الاعتراف بها، ثم تتكرر الالتفاتة بعيداً عن الله حتى يصبح الظهر هو الوجه الذي يقابل به النداء. ومع كل تولٍّ يزداد الرجوع ثقلاً، لا لأن الباب أُغلق، بل لأن الإنسان ابتعد عنه، وألف الاتجاه المعاكس، وأصبح الاعتراف بالخطأ في نظره خسارةً لصورته التي صنعها أمام نفسه والناس.

لكن ما دام العبد حياً فإن اتجاهه ليس قدراً لا يتغير؛ يستطيع أن يحول التولي إقبالاً، والتكذيب تصديقاً، والبخل عطاءً، والاستغناء افتقاراً. والإنذار بالنار نفسه دعوةٌ إلى هذا التحول؛ فالله لم يقل للناس: أنذرتكم لكي تيأسوا، بل أنذرتكم كي ينجوا.

إن الخوف المحمود ليس الذي يشلّ الإنسان حتى يظن أن التوبة لا تنفعه، وإنما الذي يوقظه فيهض، ويجعله يرى خطورة الطريق فيغيّر وجهته، ويقرع باب الله بقلبي عرف أنه لا ملجأ منه إلا إليه.

وما دام الله هو الذي يقول: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾، فإن في الإنذار معنى العناية؛ فالعبد لم يترك لغفلته، بل خاطبه ربه، ووصف له النار، وعرف له الأشقي، وكشف له أصل شقائه. كم من رحمة تختبئ في كلمة تهز القلب! إن الرحمة ليست دائماً نسيماً رقيقاً؛ قد تكون جرساً قوياً يوقظ النائم قبل أن يلتهم اللهب بيته، وقد تكون آية تخيف الإنسان من نفسه حتى يعود إلى ربه سالماً.

ولا ينبغي أن يتحول الحديث عن النار إلى معرفة باردة يكررها العقل دون أن تمس القرار؛ فالمقصود أن تستيقظ في القلب حساسية المصير، وأن يسأل الإنسان نفسه كلها همّ بمعصية أو منع حقاً: إلى أين تقودني هذه الخطوة؟ قد تبدو صغيرة في لحظتها، لكنها جزءٌ من سعي، والسعي يصنع طريقاً، والطريق ينتهي إلى يسرى أو عسرى. المؤمن لا يرى الأفعال جزءاً منفصلة، بل يرى كل فعلٍ سهماً يشير إلى وجهة، ولذلك يخاف من الإصرار على الصغيرة لا لصغرها في ذاتها فحسب، بل لما تفتحه من طريق.

كما لا ينبغي أن يجعل الإنسان النار أداة في يده يحكم بها على أشخاصٍ بأعيانهم دون علمٍ من الله؛ فآلات القلوب إلى ربه، وقد يهدي الله من نراه بعيداً، وقد يفتن من يغتر بقربه. وظيفة الإنذار أن يوقظنا وأن يدفعنا إلى البلاغ بالرحمة، لا أن يمنحنا لذة توزيع المصائر. من استشعر هول النار انشغل بالنجاة منها أكثر مما انشغل بادعاء معرفة أهلها، وسأل الله لنفسه الثبات وللناس الهداية، وعرف أن حسن الخاتمة نعمة لا يملكها العبد بقوته.

والنجاه من النار لا تتحقق بمجرد الخوف اللفظي منها، بل بتصحيح السعي الذي يقود بعيداً عنها. فمن خاف النار حقاً لم يكتفِ بالارتجاف عند سماع وصفها ثم عاد إلى البخل والظلم والتكذيب العملي، وإنما ترجع خوفه إلى عطاء وتقوى وتصديق. فالنار لا تُتقى بالأمنيات، كما أن الجنة لا تُنال بالدعاوى؛ النجاه مشروع قلب وعمل، يبدأ من إعادة الله إلى مركز الحياة، وإخراج المال من مقام السيادة، وكسر وهم الاستغناء، واستقبال الهدى بوجهٍ مقبل لا بظهرٍ متوّل.

وإذا كان الأشقى هو الذي كذب وتولى، فإن الشقاء كله يتلخص في هاتين الحركتين: إغلاق القلب عن الحقيقة، وإدارة الحياة بعيداً عنها. ليس ثمة شقاء أعظم من أن يأتي النور إلى الإنسان فيغمض عينيه، وأن يُفتح له الباب فيدير ظهره، وأن يدعى إلى الحسنى فيختار العسرى، ثم يكتشف عند النهاية أن الحق الذي هرب منه كان سبيل نجاته الوحيد.

لكن السورة لا تنتهي بالنار، ولا تجعل آخر نعماتها للتكذيب والشقاء؛ فبعد ذروة الإنذار ينشق الأفق عن صورةٍ مقابلة، صورة الأتقى الذي سيُجنب النار، لا لأنه امتلك مالاً، بل لأنه حرّ نفسه منه بالعطاء، ولا لأنه طلب منزلةً في عيون الناس، بل لأنه طلب التزكي، ولا لأنه ردّ معروفاً لخلق، بل لأنه ابتغى وجه ربه الأعلى. وبعد نارٍ تملظي سيأتي وعدٌ يفيض سكينه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾؛ لتكشف السورة أن الطريق إلى النجاه يبدأ حين يعطي الإنسان ما يحب، ويتحرر من انتظار الجزاء البشري، ويرفع وجهته حتى لا يبقى فوقها إلا وجه الله.

الفصل السادس

الْآتَقَى: حِينَ يَتَحَرَّرُ الْعَطَاءُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَبْلُغُ
مَقَامَ الرِّضَا

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْآتَقَى﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾
﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿

بعد أن بلغت السورة ذروة الإنذار في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾، لا تترك القلب واقفاً أمام اللهب، بل تفتح له باب النجاة، وتنقله من صورة الأشقي الذي كذب وتولى إلى صورة الآتقى الذي أعطى وتطهر وأخلص. وبين الصورتين تمتد المسافة التي يصنعها اتجاه القلب: هذا أدار ظهره للهدى حتى صار إلى النار، وذاك رفع وجهه إلى ربه حتى جنبها؛ هذا أمسك المال لأنه استغنى، وذاك بذله لأنه افتقر إلى الله؛ هذا جعل غايته ذاته، وذاك تجاوز ذاته وعيون الخلق جميعاً، فلم يطلب بعبائهم إلا وجه ربه الأعلى.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْآتَقَى﴾؛ لم يقل: وسيخرج منها الآتقى، بل قال: ﴿سَيُجَنَّبُهَا﴾، وفي التجنّب معنى الإبعاد والوقاية، كأن العناية الإلهية تقيم بينه وبين النار حاجزاً، فلا يبلغها ولا تبلغ به غايتها. إنه لم يكتفِ بأن يخافها، بل بنى في الدنيا بأعماله أسباب الوقاية منها؛ وكل عطاءٍ مخلص كان خطوةً بعيداً عنها، وكل تقوى كانت حجاباً،

وكل تصديقٍ بالحسنى كان نوراً يقوده إلى الجهة المقابلة. فلما جاء يوم انكشاف الطرق، ظهر أن ما كان يفعله في الخفاء لم يكن أعمالاً متناثرة، بل كان يبني مسافة النجاة.

والتجنيب فضلٌ من الله قبل أن يكون ثمرةً للعمل؛ فلا أحد ينجو من النار بمجرد حوله وقوته، ولا يستطيع عملٌ مهما عظم أن يستقلَّ بشراء رحمة الله، لكن الله جعل للعمل الصالح دلالةً على صدق العبد وسبباً لنيل فضله. المتقي يعمل ولا يغتر بعمله، ويجتهد ولا يزعم أنه استغنى عن الرحمة، ويعطي ماله ثم يعلم أن توفيقه للعطاء نعمةٌ أخرى تستوجب الشكر. فهو لا يقف عند باب الله وفي يده فاتورة استحقاق، بل يقف فقيراً يحمل عملاً ناقصاً ويرجو رباً كامل الرحمة.

واختيار وصف ﴿الْآتِقِ﴾ يربط خاتمة السورة ببداية طريق اليسرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾. فالتقوى لم تبقَ فعلاً عابراً في حياته، بل نمت حتى صارت وصفاً له؛ بدأ يتقي في الموقف، ثم صار من أهل التقوى، واستمر في تزكية قلبه حتى ارتقى في هذا المقام. وهكذا تصنع الطاعات أصحابها: لا تبقى خارج الإنسان، بل تتسرب إلى تكوينه، وتعيد ترتيب رغباته ومخاوفه، حتى يغدو الخير الذي كان يجاهد نفسه عليه في البداية جزءاً من طبيعته الجديدة.

والآتقى ليس إنساناً منزوع الضعف، ولا مخلوقاً لا يعرف صراع النفس، بل إنسانٌ عرف مواضع ضعفه فوضع بينها وبين سخط الله وقاية. التقوى من الوقاية؛ إنها أن ترى الخطر قبل السقوط، وأن تجعل بينك وبينه طاعةً وذكرًا ومراقبة. وقد يقترب المتقي من الخطأ، لكن يقطّعه تعيده؛ وقد تغلبه نفسه، لكن خوفه لا يتركه مستريحاً

في المعصية؛ وقد يتعثر، لكنه لا يحول عثرته إلى طريق. إن الفرق بين المتقي والغافل ليس أن الأول لا يخطئ أبداً، بل أنه لا يفقد بوصلة العودة.

ثم تكشف السورة العلامة العملية البارزة لهذا الأتقى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾. إنه يؤتي ماله، لا لأنه مستغن عن المال من حيث حاجته البشرية، ولا لأنه لا يعرف قيمته، بل لأنه عرف قيمته الحقيقية؛ أدرك أن أعظم وظيفة للمال ليست أن يتكاثر حول الجسد، وإنما أن يطهر الروح من الأسر، وأن يتحول في يد المؤمن من متاعٍ فانٍ إلى عملٍ باقٍ. إن المال عنده لا يفقد قيمته حين يخرج من يده، بل يبلغ قيمته القصوى؛ لأنه انتقل من الاستهلاك إلى التزكية، ومن الخزينة إلى الميزان، ومن ملكية مؤقتة إلى ثوابٍ عند الله.

ولفظ ﴿يُؤْتِي﴾ يفيد الفعل المتجدد، وكأن العطاء ليس حادثةً منفردةً يتذكرها الإنسان طويلاً ليعني نفسه من مسؤوليات الحاضر، بل خلقٌ يتكرر كلما تكررت القدرة والحاجة. إن الأتقى لا يعيش على ذكرى صدقةٍ قديمة، ولا يجعل خير الأُمس حجاباً عن واجب اليوم؛ لأنه يعرف أن النعم تتجدد، وأن حقوقها تتجدد معها، وأن القلب قد يعود إليه الشح إذا توقف عن مجاهدته. العطاء عنده رياضةٌ روحية متواصلة، ينظف بها مجاري القلب كلما أراد التملك أن يسدها.

﴿مَالَهُ﴾؛ أضاف المال إليه ليكشف أن التزكية لا تطلب منه شيئاً لا صلة له به، بل تطلب منه ما يحبه ويحوزه ويشعر بسلطانه عليه. إن العطاء الذي يطهر ليس التخلص من المهمل الذي لا يريد صاحبه، ولا إلقاء الفائض الذي لا يشعر بخروجه، وإنما أن يُخرج الإنسان مما رزقه الله وهو يشعر بقيمته، فينتصر معنى الله في قلبه على معنى التملك. ومن هنا كانت الصدقة امتحاناً للحب؛ فالإنسان لا يُختبر فيما يكره، بل فيما

يحب، ولا تظهر حرية القلب حين يترك ما لا يريده، بل حين يستطيع أن يقدم بعض ما يريد لما يريده الله.

وليس المقصود أن يهلك الإنسان نفسه أو يضيع من تجب عليه نفقتهم؛ فالهدى لا يناقض الحكمة، والشرعية لا تجعل العطاء فوضى، لكن المقصود ألا تصبح الحاجة المشروعة ذريعةً لشح لا ينتهي. النفس قادرةٌ على اختراع حاجاتٍ جديدة كلما ازداد المال، حتى لا يبقى في نظرها فائضٌ أبداً؛ كلما اتسع رزقها اتسعت قائمة ما تعدّه ضرورياً، ثم تقول بعد كل ذلك: إذا زاد ما عندي أعطيت. أما الأتقى فلا ينتظر أن يصل إلى لحظةٍ لا يحتاج فيها إلى شيء، لأنها لحظة لن تأتي في الدنيا؛ يعطي وهو محتاج إلى المال، لكنه أشد حاجةً إلى التزكي.

وقوله: ﴿يَتَزَكَّى﴾ يكشف غاية العطاء: إنه يريد الطهارة والنماء. والزكاة تجمع المعنيين، تطهير النفس من الشح، وتطهير المال من الحقوق المتعلقة به، وإثماء الروح بالخير، وإثماء البركة بما يرضي الله. فالذي يعطي لا يحسن إلى الفقير وحده، بل يحسن إلى قلبه قبل ذلك؛ يخلصه من طبقةٍ من الأنانية، ويوسع فيه مساحة الرحمة، ويعيده إلى فطرته التي تعرف أن الإنسان لا يكتمل وحده.

إن البخيل يتوهم أن المعطي يطهر المجتمع بماله فحسب، لكنه لا يرى الطهارة التي تحدث في داخل المعطي. حين تفتح اليد يفتح معها موضعٌ في القلب، وحين تنكسر قبضة التملك يدخل إليها نور الحرية، وحين يرى الإنسان أثر عطائه في حياة آخر يدرك أن وجوده يمكن أن يكون رحمةً لا مجرد استهلاك. وهنا يتحول المال من أداة فصل بين الغني والفقير إلى جسرٍ إنساني يردّ أجزاء المجتمع بعضها إلى بعض.

والتزكي فعلٌ يعود إلى المعطي، فهو لا يعطي ليزكي غيره من موقع التعالي، ولا لينظر إلى المحتاج كأنه مادةٌ لفضله، وإنما ليزكي نفسه. الفقير قد يكون باب نجاة الغني، والمحتاج قد يكون المنة الإلهية التي أتاحت للقادر أن يحوّل ماله إلى حسنة. لذلك لا يجرح الأتقى كرامة من يعطيه، ولا يذكّره بفضله، ولا يجعل العطاء مسرحاً يتوسطه اسمه؛ لأنه يعلم أن المستفيد الأعظم هو نفسه، وأن الله لو لم يفتح له باب المحتاج لبقى المال في يده حتى يتركه عند الموت دون أجر.

وإذا كان العطاء تزكية، فإن المنّ والأذى يعيدان إلى النفس ما أخرجته الصدقة منها من أدران؛ فالذي يعطي ثم يذل الآخذ لم يتحرر بعد من مركزية ذاته، بل اشترى بماله منصةً يقف عليها أعلى من الناس. أما الأتقى فيعطي وقلبه ممتنٌّ لله أن اختاره للوساطة في وصول الرزق إلى عبده، ويخشى أن يفسد نظره إلى نفسه عمله، وربما شعر أن الفقير أحسن إليه حين حمل عنه ثقل المال وأتاح له باب القرب.

ثم تنتقل السورة من ظاهر العطاء إلى سريرة النية: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾. إنه لا يعطي ليكافئ صاحب فضلٍ دنيوي عليه، ولا ليردّ ديناً اجتماعياً، ولا ليشتري ولائاً مستقبلياً؛ فالعطاء المقصود هنا خالصٌ من شبكة المصالح المتبادلة. ليس عند أحدٍ من الخلق نعمةٌ يدفع المال جزاءً لها، حتى يقال إن حركته دارت في دائرة المقابلة البشرية، وإنما خرج عطاؤه من أفقٍ أرفع: إنه يريد أن يتعامل مع الله مباشرة، وأن يجعل عمله محرراً من الحسابات التي تقول: من أعطاني أعطيت، ومن لم ينفعني لا شأن لي به.

لا تذم الآية رد الجميل؛ فرد المعروف خلق كريم، وشكر الناس من الشكر الذي حصّت عليه الشريعة، لكنها تصف مقاماً مخصوصاً من الإخلاص في البذل: عطاء لا

تفسره منفعةً سابقة، ولا يتحكم فيه انتظار منفعةٍ لاحقة، ولا يقوم على علاقة تبادل بين متساوين، بل يذهب إلى من لا يملك مكافأة المعطي. وهنا يصفو العمل؛ لأن الفقير عاجز عن الرد يكشف حقيقة النية: هل يعطي الإنسان لأنه يحب الخير لله، أم لأنه يستثمر في الأشخاص وينتظر منهم مقابلاً؟

كثيرٌ من العلاقات التي تسمى عطاءً تخفي وراءها عقوداً غير مكتوبة: أعطيك لتصفق لي، وأساعدك لتذكر اسمي، وأقف معك لتقف معي، وأفتح لك باباً لكي تظل مديناً لي. فإذا لم يأتِ المقابل غضب المعطي، وشعر أن خيره ضاع، وربما تحول إحسانه القديم إلى أداة ابتزاز. هذا لم يعطِ حقاً، بل أقرض غروره قرضاً ينتظر فوائده من الناس. أما الأتقى فقد وضع أجره في موضع لا يحجب؛ لم يعلقه بذاكرة بشر قد تنسى، ولا بلسانٍ قد يجحد، ولا بقدرةٍ قد تعجز، وإنما علقه بالله.

إن من أعظم حريات الروح أن تعمل الخير دون أن ترتب لردود أفعال من أحسنت إليهم. قد يشكرك الناس أو يحدوا، يمدحوك أو يسيئوا فهمك، يحتفظوا بالجميل أو يقابلوه بالكران؛ لكن شيئاً من ذلك لا يغيّر حقيقة العمل ما دام الله قد رآه وقبله. الإخلاص يحرر الإنسان من تقلب الأسواق البشرية، فلا ترتفع همته بالتصفيق ولا تنهار بالحدود، لأنه لم يبدأ من الناس حتى ينتهي إليهم.

ولذلك تأتي الآية التي تختصر كل الدوافع وتردها إلى غايةٍ واحدة: **﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾**. هذا هو السر الذي جعل العطاء تزكية، وجعل صاحبه أتقى، وجعل النار مجنباً عنه؛ لم يكن العمل عظيماً بحجمه وحده، بل بالوجهة التي حملته. كان يتبغي وجه ربه، أي يقصد رضاه وقربه وثوابه، منزهاً سبحانه عن مشابهة خلقه؛

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فوجهه تعالى صفةٌ تليقُ بجلاله بلا تكييفٍ ولا تمثيل، والمقصود أن قلب العبد لم يقف عند شيءٍ دون الله، ولم يجعل الخلق نهاية قصده.

و«الابتغاء» طلبٌ حثيث، لا أمانةٌ ساكنة؛ إنه سعي القلب نحو الله، وبحته في كل عملٍ عن الطريق الأقرب إلى رضاه. المخلص لا يكتفي بأن يخلو عمله من الرياء الظاهر، بل يفتش في طبقاته الخفية: هل يريد أن يرى نفسه صالحاً؟ هل ينتظر أن يشعر الآخرون بحاجتهم إليه؟ هل يحب أن ينتشر اسمه ولو لم يصرح؟ إنه يجاهد دوافعه كما يجاهد البخيل شحّه، لأن النية ميدانٌ دقيقٌ تسلسل إليه النفس من منافذ لا يراها إلا من طال تفقده لقلبه.

وليس الإخلاص حالةٌ يدعيها المرء لنفسه مرةً واحدة، بل عبادةٌ تتجدد قبل العمل وأثناءه وبعده. قبل العمل يطهر قصده، وأثناءه يقاوم التفاته إلى الأنظار، وبعده يحرسه من العُجب والمنّ واستكثار ما قدّم. وربما كان حفظ الحسنة بعد وقوعها أشق من فعلها؛ فقد يعطي الإنسان خفيةً ثم يمضي به حديث النفس حتى يحب أن يُعرف، أو يذكر إحسانه في مقامٍ آخر، أو يشعر في أعماقه أنه صار أفضل من المحتاج إليه. ولذلك يظل المخلص خائفاً على عمله، لا يركن إليه، ويسأل الله القبول أكثر مما يفرح بمجرّد الإنجاز.

وفي إضافة الرب إلى العبد: ﴿رَبِّهِ﴾ دفءٌ وقربٌ وتريةٌ، فهو لا يبتغي وجهه إلّا لا يعرف عنه إلّا السلطنة، بل وجه ربه الذي خلقه ورزقه ورباه بالنعم، وأقامه في الوجود، وفتح له طريق الهدى، وأعانته على العطاء. إن الإخلاص هنا ليس تجرّداً بارداً، بل استجابة حبٍّ وامتنان؛ العبد يعطي لأنه ينظر إلى كل ما في يده على أنه أثرٌ

من آثار ربوبية الله له، فيرد النعمة طاعةً إلى المنعم، ويقول بعمله: ما أعطيتُ أحداً من ذاتي، وإنما مرّ فضلك يا رب من يدي إلى عبدك.

ثم يصف الله نفسه في هذا المقام بأنه ﴿الْأَعْلَى﴾، لتسقط أمام علوه كل الغايات الصغيرة. ماذا تساوي نظرات الناس أمام وجه الرب الأعلى؟ وما قيمة المدح العابر إذا كان العمل يطلب به رضا من له الآخرة والأولى؟ ومن عرف علو الله استحيا أن يجعل عبادته سلباً يصعد به في أعين الخلق، أو أن يستبدل رضا الأعلى بإعجاب الأدنى. كل مقصدٍ دون الله منخفض، مهما بدا كبيراً في ميزان الدنيا؛ فالشهرة تنطفئ، والثناء يتغير، والناس أنفسهم يغادرون، أما الله الأعلى فباقٍ، وما ابتُغي به وجهه باقٍ عنده.

إن وصف ﴿الْأَعْلَى﴾ يعيد ترتيب حركة القلب؛ فكما أن الله أعلى في أسمائه وصفاته وقهره وقدره على الوجه اللائق بجلاله، ينبغي أن تكون إرادة رضاه أعلى مقاصد العبد. قد تتحرك في النفس دوافع كثيرة: حب السمعة، وطلب القبول، والخوف من النقد، والرغبة في رد الجميل، لكن الإيمان يرفع فوقها دافعاً حاكماً يسأل: أين رضا الله؟ فإذا تعارض الأعلى مع الأدنى اختار المؤمن الأعلى، وإذا اجتمعا لم يجعل رضا الناس أصلاً ورضا الله تابعاً.

وكما ارتفعت الغاية خفّت أثقال الطريق. من طلب الناس عاش موزعاً بين أذواقهم المتناقضة؛ ما يرضي هؤلاء يغضب أولئك، وما يرفعه اليوم قد يضعه غداً، فينفق عمره في مطاردة صورته داخل عيون لا تستقر. أما من ابتغى وجه الله فقد توحدت وجهته، واستراح قلبه من التشتت، وعرف أن عليه صدق السعي، وأن

القبول والجزاء عند رب لا يضيع مثقال ذرة. الإخلاص ليس حرماناً من تقدير الناس فحسب، بل نجاةً من عبوديتهم.

وبعد هذا الصعود الروحي تأتي آخر آية في السورة كنسمةٍ من الرضا تهبّ بعد مشهد النار: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. يالها من نهايةٍ تجمع في كلماتٍ قليلةٍ ثمرة الطريق كلّها! بدأ الأمر بعتاءٍ قد يبدو في ظاهره فقداً، وانتهى برضا يمتلئ به القلب حتى لا يشعر بشيء مما فقد. أخرج ماله يطلب التزكي، وقطع علائقه بمكافآت الناس، ورفع وجهته إلى ربه الأعلى، فوعده الله بما هو أوسع من المال وأبقى من الثناء: وعده أن يرضى.

ولم يقل: ولسوف يُعطى فقط، بل قال: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾؛ فقد يُعطى الإنسان ولا يرضى إذا بقي في قلبه جوعٌ لا يشبع، وقد يملك الكثير ثم تظل عينه معلقةً بما ليس عنده. أما تمام النعمة فليس في كثرة العطاء وحدها، بل في قلبٍ يفيض عليه من فضل الله حتى يبلغ الرضا. الرضا غنى الروح الأخير، حيث تنتهي المقارنات، وتسكت المخاوف، ويجد الإنسان أن ما منحه الله أعظم مما كان يرجو، وأن كل ما تركه في الدنيا صغيرٌ أمام ما لقيه.

والسين مع «سوف» تفتح أفق المستقبل، والتوكيد باللام يمنح الوعد قوةً تسكن إليها النفس: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. قد يبذل الآن ولا يرى تمام الثمرة، وقد يجاهد الإخلاص ويتألم من جحود الناس، وقد يختار الله في موقفٍ يخسر فيه شيئاً من دنياهم، لكن المستقبل عند ربه يحمل له رضاً مؤكداً. إن تأخر الجزاء لا يعني ضياعه، بل ربما كان من تمام عظمته أن يدخر للموضع الذي تسع فيه الروح لتلقيه، وحيث لا يتهدده فناءٌ ولا يعقبه خوف.

وإذا كانت الآيات قد نزلت في سياقٍ ذكر المفسرون فيه أبا بكر الصديق رضي الله عنه وعطاءه وإنفاقه في سبيل الله، فإن لفظها باقٍ في عمومها، يهدي كل من سار في طريق الإخلاص والعطاء، مع حفظ السبق والفضل لمن كان سبباً خاصاً في النزول عند ثبوت الرواية. لقد صار الصديق نموذجاً حياً للمال حين يتحرر من سلطة المال، وللإنسان حين يعطي لا ليشترى نفوذاً بل ليعتق المستضعفين ويبتغي وجه الله؛ غير أن باب المعنى لا يعلق بعده، بل يظل مفتوحاً لكل قلبٍ يريد أن يأخذ من الصديقية نصيباً من الصدق.

والرضا الموعود ليس رضا عن الله بعد سنخٍ عليه، وإنما امتلاءً بما يفيضه الله من كرامته، وطمأنينةً بما يكشفه من حسن العاقبة، وفرحٌ يجد فيه العبد أن ربه لم يضع لحظة صدقٍ ولا خفقة إخلاص. سيرى أعمالاً نسيها ولم ينسها الله، وصدقاتٍ أخفاها حتى غابت عن ذاكرته فوجدها محفوظة، ومواقف قاوم فيها نفسه فحسبها صغيرةً فإذا بها أثقل في الميزان مما ظن. عندها يعرف أن عين الله كانت ترى حين لم تره العيون، وأن يد العناية كانت تحفظ ما ظنه ضائعاً.

ما أبعد المسافة بين ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ و﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾! الأول أمسك ماله حتى تركه ثم ترَدَّى، والثاني أعطى ماله فبقي له ثم ارتقى؛ الأول أراد أن يشتري بالمال غناه فلم يغن عنه، والثاني بذل المال اعترافاً بفقره فأغناه الله بالرضا؛ الأول كذب بالحسنى لأنه لم ير إلا ما في يده، والثاني صدق بها حتى رأى بوعده الله ما وراء حدود الحس.

وما أبعد المسافة بين النار المتلظية والرضا! لكن السورة تعلمنا أن هذه المسافة الهائلة تبدأ من تفاصيل قد تبدو صغيرةً في يوم الإنسان: درهمٌ يعطيه أو يمنع، ونيةٌ يطهرها

أو يلوئها، ونداء يقبل عليه أو يتولى، ووعدٌ يصدقهُ أو يكذبهُ. إن المصائر الكبرى تنمو من الاختيارات اليومية، والأبد يُبنى في الدقائق التي نظن أنها تمضي بلا أثر.

لقد بدأت سورة الليل بقسمٍ على اختلاف السعي: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، وها هي تنتهي بكشف أبعد نهايات ذلك الاختلاف. سعيٌ يقود إلى نارٍ تلتظى، وسعيٌ يقود إلى نفسٍ ترضى؛ إنسانٌ اتجه بعيداً عن الهدى حتى صار الأشتى، وإنسانٌ ابتغى وجهه ربه الأعلى حتى صار الأتقى. وبينهما يقف كل قارئ، لا بوصفه متفرجاً على قصتين، بل بوصفه صاحب سعيٍ يتشكل الآن.

إن السؤال الأخير الذي تتركه السورة في القلب ليس: أي الفريقين أعرف؟ بل: أي الفريقين أبني؟ أين يذهب مالي؟ وما الذي يحكم خوفي؟ ومن الذي أطلب رضاه؟ هل أتحرك بعينٍ تراقب وجوه الناس، أم بقلبٍ يبتغي وجه ربه الأعلى؟ هل يزيدني ما أملك قريباً أم استغناء؟ هل صار العطاء أيسر عليّ، أم أن العسرى تسلل إلى روحي في صورة تبريراتٍ متزايدة للبخل؟

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ليست وعداً للأتقى وحده، بل دعوة لكل من أثقله القلق وأتعبته مطاردة الرضا في غير موضعه: لا تبحث عن تمام الرضا في كثرة ما تحتفظ به، ولا في اتساع اسمك بين الناس، ولا في قدرتك على إلزامهم برد الجميل؛ فالرضا هبةٌ من الله تأتي حين تتحرر من عبادة الأخذ، وتعرف جمال العطاء، وتصفّي قلبك من المقاصد الصغيرة، وترفع وجهتك إلى الأعلى.

عندئذ يصبح الليل الذي افتتحت به السورة زمناً للخلوة لا غطاءً للغفلة، ويصبح النهار تجلياً للعمل لا مسرحاً للرياء، ويصبح اختلاف السعي سؤالاً يومياً عن الوجهة،

ويصبح المال مرجأً إلى الآخرة لا صخرةً يتردى بها صاحبه، ويصبح الإنذار نجاةً قبل النار، ويصبح العطاء طهارةً، والإخلاص حريةً، والرضا نهايةً تليق بمن لم يرد من الدنيا والآخرة إلا الله.

الْحَاتِمَةُ الْفِكْرِيَّةُ الْجَامِعَةُ

مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَغْشَى إِلَى الرِّضَا الَّذِي لَا يَغِيبُ

تنتهي سورة الليل، لكن سؤاها لا ينتهي؛ لأن السورة لم تكن تصف ليلاً يهبط على الكون ثم ينسحب عند الفجر فحسب، بل كانت تكشف ليلاً قد يغشى البصيرة، ونهاراً قد يتجلى في الضمير، وطريقين يتشكلان في خفاء النفس قبل أن ينكشفا في صراحة المصير. وما بين أول قسمٍ فيها وآخر وعد، تعيد السورة بناء نظرتنا إلى الإنسان والمال والعمل والهدى والآخرة؛ فلا يعود العمر زمناً نعبه، بل سعيّاً يصنعنا، ولا يعود المال شيئاً نملكه، بل امتحاناً يكشف من يملك من، ولا يعود العطاء نقصاً في الحساب، بل زيادةً في الروح، ولا تعود التقوى خوفاً يعزل الإنسان عن الحياة، بل بصيرةً تحفظه من أن يستهلك حياته في الاتجاه الخطأ.

تفتح السورة مشهدها بالليل حين يغشى، ثم بالنهار حين يتجلى، لتضع الإنسان أمام قانون الاختلاف الذي ينتظم الوجود: ظلمةٌ ونور، وسترٌ وانكشاف، وذكرٌ وأُنثى، ثم سعيٌّ ينفرد بأصحابه وإن عاشوا في الأرض نفسها وتحت السماء نفسها. ولم يكن القسم بهذه المشاهد الكونية العظيمة إلا تمهيداً لحقيقة تمس أدق لحظات الإنسان: **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**. إننا متشابهون في صورة الرحلة؛ نولد ونكبر ونقص ونموت، لكننا مختلفون في الحقيقة التي نصنعها داخل هذه الصورة، وفي المعنى الذي نعطيه لأيماننا، وفي الجهة التي تحملنا إليها اختياراتنا المتكررة.

لا أحد خارج السعي؛ حتى الذي يؤجل القرار قد اتخذ بالتأجيل قراراً، والذي يمتنع عن الحركة تحمله الأيام إلى نهاية لم يخترها بوعي، والذي يلوذ بالصمت في موضع الحق يكتب بصمته سطرًا في مصيره. فالإنسان لا يستطيع أن يمنع العمر من التحول إلى نتيجة، ولا أن يحتفظ بأيامه خامًا بلا دلالة؛ كل ساعة تدخل في بنائه، وكل عادة تشق في روحه طريقًا، وكل موقف يقربه من اليسرى أو ييسره العسرى. وما نظنه أحيانًا لحظات منفصلة ليس إلا خيوطًا تجتمع في الثوب الذي سنلقى الله به.

لقد كشفت السورة أن اختلاف المصائر لا يبدأ من المشهد الأخير، وإنما يبدأ من دوافع تكاد تكون خفية في القلب. هناك إنسانٌ أعطى واتقى وصدق بالحسنى، فاجتمع في حياته البذل والمراقبة واليقين؛ وهنالك آخر بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فاجتمع فيه الإمساك والغفلة والوهم. وبين النموذجين لا تقع مقابلة بين غني وفقير، ولا بين قوي وضعيف، ولا بين صاحب جاه ومغمور، وإنما بين قلبين اختلفت علاقتهما بالله وبالنعمة وبالمستقبل.

في النموذج الأول يخرج التصديق بالحسنى من دائرة الفكرة إلى حركة اليد؛ فالمؤمن يعطي لأن ما عند الله حاضر في يقينه، ويتقي لأن لقاء الله قائم في ضميره، ويصدق لأن الوعد عنده أقوى من خوف النقص. إن الإيمان هنا ليس معرفة ذهنية باردة، بل قدرة على تحرير الإنسان مما يراه لما لا يراه، ومن سطوة العاجل إلى أفق الباقي، ومن عبودية الأشياء إلى الثقة برب الأشياء. وكلها قوي التصديق خفّ التعلق؛ لأن القلب لا يمسك بالزائل بعنفٍ إلا حين يغيب عنه الباقي.

أما النموذج الآخر فقد بدأ بالبخل، لا لأن يده خالية، بل لأن قلبه امتلأ بالاستغناء. لقد توهم أنه يستطيع أن يكتفي بما جمع، وأن يبني بينه وبين الفقر والموت والمصير جدراً من المال، لكنه لم يدرك أن الجدار نفسه قد يصبح سجنه، وأن الأشياء التي جمعها ليحرس بها حياته قد تستولي على حياته فتجعله حارساً لها. إن الإنسان قد يحمل المال في يده فينتفع به، وقد يحمله في قلبه فينحني له؛ والفارق بين الحياة والعبودية ليس مقدار ما يملك، بل مقدار الحرية التي بقيت في روحه تجاه ما يملك.

هنا تعيد سورة الليل تعريف الغنى والفقر؛ فالغنى ليس من كثر ما في يده، بل من قلّ سلطان ما في يده على قلبه، والفقر ليس من افتقد بعض الأشياء، بل من لم يجد كفايته في الله فظل جوعه يتسع كلما ازدادت خزائنه. كم من فقيرٍ نام وقلبه ساكن لأنه عرف أن له رباً لا ينساه، وكم من غنيٍّ ظل يعدّ أمواله إلى الفجر لأنه لم يعرف كيف يستودعها الله! الغنى الحقيقي ليس أن تضمن ألا تحتاج، فهذا مستحيل على المخلوق، بل أن تعرف إلى من ترفع حاجتك حين تحتاج.

ومن أدقّ قوانين السورة وأشدّها أثراً قانون التيسير: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾، و﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾. فالطرق لا تبقى محايدة أمام السائر؛ كل خطوة تمنح الطريق التالي شيئاً من السهولة، وكل اختيار متكرر يبني في النفس استعداداً لما يشبهه. من درّب يده على العطاء صار البذل أيسر عليه، ومن درّب قلبه على التقوى صار سماع نداء الحق أقرب، ومن غدّى يقينه بالحسن صار احتمال مشقة الطاعة أهون؛ وفي الجهة المقابلة، من كرر الإمساك اتسع فيه الشح، ومن اعتاد الاستغناء ثقل عليه الافتقار، ومن أعرض عن النور مرةً بعد أخرى صار الظلام أكثر ملاءمةً لعينه.

إن التيسير لا يلغي الحرية ولا يبرئ الإنسان من مسؤوليته، بل يكشف خطورة استعمالها؛ فالعبد يعلن وجهته، ثم يجازيه الله من جنس اختياره، فيعين المقبل بفضل، ويترك المعرض بعدله للطريق الذي رضي به وأصرّ عليه. ومن هنا ينبغي للإنسان ألا ينظر إلى سهولة الفعل وحدها، بل إلى الجهة التي تقوده إليها هذه السهولة؛ فربّ معصية تيسرت فكانت فتنة، وربّ باب دنيا فُتح فكان استدراجاً، وربّ طاعة ثقلت فكانت سهلاً، وربّ محنة آلمت فأُنقذت القلب من طريقٍ أشدّ ألماً.

ليست كل سهولة يسرى، وليست كل مشقة عسرى؛ إنما تسمّى الطرق بأواخرها. قد تكون اليسرى صعوداً شاقاً في بدايتها، لكنها تنتهي إلى رضا، وقد تكون العسرى انحداراً مريحاً في أولها، لكنها تنتهي إلى نارٍ تلتظى. والإنسان العاقل لا يقيس الطريق بلذة الخطوة الأولى، بل بحقيقة الموضع الذي تضعه فيه الخطوة الأخيرة. إن أعظم خداع الدنيا أنها تعرض مقدمات الأشياء وتخفي نتائجها؛ فتُظهر لذة الذنب وتخفي مرارة أثره، وتُظهر نقص المال بالعطاء وتخفي ثمائه عند الله، وتُظهر تعب التقوى وتخفي السكينة التي تنشأ في قلب صاحبها.

ثم تتقف السورة بالمال أمام لحظة الامتحان النهائي: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾. في هذه الآية يُنزع المال من الأسطورة التي صنعها له الإنسان، ويعاد إلى حجمه الحقيقي: وسيلة نافعة في حدود، عاجزة عند الحدود الكبرى. يستطيع أن يخفف بعض حاجات الحياة، لكنه لا يمنح الحياة؛ يستطيع أن يبيّن حول الجسد أسباب الراحة، لكنه لا يصنع في القلب الرضا؛ يستطيع أن يؤخر بعض صور الألم، لكنه لا يلغي الموت؛ فإذا تردّى الإنسان وقف المال عند حافة المصير، لا يتبعه، ولا يغني عنه، ولا يشتري له مهلةً ليعيد بها ترتيب ما ضيّع.

ليس السؤال إذن: كم ترك الإنسان؟ بل: ماذا أرسل أمامه؟ وما خرج من يده في سبيل الله لم يضع، وإنما انتقل إلى الموضع الذي سيجده فيه، أما ما ضمه إلى صدره حتى مات فقد انتقل إلى غيره وبقي حسابه عليه. فيا لها من مفارقةٍ تهدم وهم التملك: يتعب المرء في جمع شيءٍ ستره كسرًا، ثم يخجل أن يقدم منه ما سيجده اختياريًا. يؤثر مالا سيصير للورثة على صدقةٍ كانت ستصير له، ويحرس الفاني من أن ينقص حتى يفوته الباقي كله.

غير أن السورة لا تترك الإنسان أمام معجزه، بل تعلن له أن الهدى لم يُحجب عنه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾. لم يخلق الله الإنسان ثم يلقيه في غابة الوجود بلا دليل، ولم يطلبه بنهايةٍ لم يبين طريقها، وإنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام في الفطرة شوقاً إلى الحق، وفي العقل قدرةً على النظر، وفي الكون آياتٍ لا تتقطع. وكلما غطى الإنسان بصيرته عاد النداء يطرقها في صورة آيةٍ أو موعظةٍ أو ابتلاءٍ أو موتٍ قريب، كأن الرحمة لا تملّ من إيقاظه وإن ملّ هو من العودة.

إن الله قد تكفل ببيان الهدى، لكنه لم يعد الإنسان أن يحمل قلبه إليه قسرًا، لأن الهداية التي لا مكان فيها للإرادة لا تصنع عبداً مختاراً، ولا تكشف صدقاً ولا مجاهدة. على الإنسان أن يستجيب، وأن يطلب، وأن يعترف بحاجته، وأن يضع قدمه في الطريق، ثم يأتيه من توفيق الله ما يفوق قدرته. فالهداية ليست إنجازاً ذاتياً يتكبر به المهتدي، وليست عذراً ينتظر به المعرض قوةً تدفعه رغماً عنه؛ إنها فضلٌ إلهي يُطلب بصدق، ويُستقبل بافتقار، ويُحفظ بالشكر.

ثم تأتي الحقيقة التي تسقط كل أوهام الاستقلال: ﴿وَإِنَّا لَنَآ لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾. لله الدنيا التي يستغني فيها الإنسان، ولله الآخرة التي يلقي فيها نتيجة استغناؤه؛ لله المال

الذي يخل به، والله النفس التي تحمل المال، والله الزمن الذي يملكه مؤقتاً، والله المصير الذي لا يستطيع الهرب منه. فما أعجب أن يستغني العبد عن الله بشيء يملكه الله! وما أعجب أن يعصي في أرضه بنعمة من خزائنه، ثم يظن أن النعمة تحميه من حكمه!

لكن إعلان ملك الله للأولى والآخرة ليس تهديداً وحده، بل سكينَةٌ كذلك؛ فما دامت لله، فالمؤمن لا يخرج في أي مرحلة من رعاية ربه. هو في الدنيا داخل ملكه، وحين يموت لا ينتقل إلى مجهولٍ خارج سلطانه، بل ينتقل من دار الله إلى دار الله، ومن زمن العمل إلى زمن الجزاء. والذي هداه في الأولى قادراً أن يؤمنه في الآخرة، والذي أمره بالعطاء لن يضيع ما قدّم، والذي رأى إخلاصه حين غابت أعين الناس سيظهر له كرامته حين تجتمع الخلائق.

ومن تمام الهدى أن جاء الإنذار: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾. النار حقيقة لا يبددها إنكار، والإنذار بها رحمة لا تناقض الرجاء؛ إذ لم يُذكر اللهب بعد السقوط، بل ذُكر والإنسان قادراً على تغيير الاتجاه. ما دام يسمع الإنذار في الدنيا، فما زال بينه وبين النار عملٌ يستطيع تركه، وتوبةٌ يستطيع الدخول منها، وحقٌ يستطيع أدائه، وقلبٌ يستطيع أن يعيده من التولي إلى الإقبال. إن الخيف ليس أن يسمع الإنسان عن النار فيرتجف، بل أن يسمع فلا يتحرك فيه شيء، وأن تصبح آيات المصير مألوفاً إلى حدٍّ لا توقظه.

والأشقى الذي يصلّي النار ليس شقيّاً لأنه قلّ ماله أو كثرت محنه، بل لأنه ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؛ أغلق قلبه عن الحقيقة، ثم أدار حياته بعيداً عنها. لقد اجتمع فيه فساد المعرفة وفساد الاتجاه؛ لم يصدق، وحين جاء الهدى لم يقبل. وهكذا يتبين أن الشقاء ليس فيما يصيب الإنسان من الخارج، بل فيما يفعله بالنور حين يأتيه. قد يبتلى

المؤمن فتتسع روحه، وقد يُنعم المكذب فتضيق بصيرته؛ الأول تؤلمه الدنيا لتوصله إلى الله، والثاني تريحه الدنيا حتى تنسيه الله، فأيهما الأشقى في ميزان النهاية؟

لكن المشهد لا يعلّق على الأشقى والنار، بل نتقدم صورة الأتقى الذي سيُجنّبنا: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾. هنا يبلغ العطاء معناه الأعمق؛ لم يعد مجرد نقل مالٍ من يد إلى يد، بل تحريراً للروح من شحها، وتطهيراً للقلب من عبودية التملك، وإعلاناً أن الإنسان يريد أن يكون أكبر مما يحوز. الأتقى لا يعطي لأنه لا يحب المال، بل لأنه يحب الله أكثر، ولا يبذل لأنه لا يحتاج، بل لأنه عرف أن حاجته إلى التزكي أعظم من حاجته إلى الاحتفاظ بكل شيء.

ومن هنا تُفهم عظمة التعبير: ﴿يَتَزَكَّى﴾. إن المحتاج يأخذ المال فينتفع به زمناً، أما المعطي المخلص فيأخذ من عطائه طهارةً تمتد إلى الأبد. الفقير ليس مجرد متلقٍ لفضل الغني، بل قد يكون الباب الذي فتحه الله للغني كي ينجو من ماله، والمكان الذي يودع فيه نصيبه من الآخرة. لذلك لا موضع للمنّ في العطاء الصادق؛ فالذي أعطى قد استفاد بقدرٍ لا يراه، والذي أخذ حمل عنه جزءاً من ثقل الأمانة.

ثم تصعد السورة بالنية حتى تخرجها من كل دائرة بشرية ضيقة: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾. لا مكافأةً لخلق، ولا شراءً للثناء، ولا استثماراً في الولاء، ولا طلباً لصورة جميلة في ذاكرة الناس؛ إنما وجهة واحدة ارتفعت فوق الوجوه كلها: ابتغاء وجه الله تعالى، على ما يليق بجلاله، من غير تمثيلٍ ولا تكييف، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

الإخلاص في سورة الليل ليس تجميلًا للعمل بعد اكتماله، بل هو الروح التي تمنحه هويته. قد يتشابه العطاءان في المقدار، لكن أحدهما يذهب إلى الله والآخر يدور حول صاحبه؛ أحدهما يحرق النفس، والآخر يضحّمها؛ أحدهما يُخفي فينمو، والآخر يُعرض فيذبل تحت حرارة النظر. ليست القضية كم خرج من اليد وحدها، بل إلى أين اتجه القلب حين خرج ما في اليد.

إن انتظار الجزاء من الناس لونٌ من الفقر؛ لأن الإنسان يسلّم سلامه الداخلي لذاكرة تنسى، ولسانٍ قد يجحد، ومزاجٍ يتغير. أما من ابتغى وجه ربه الأعلى فقد وضع أجره في الموضع الذي لا يضيع، واستراح من مراقبة الأثر في عيون البشر. إن شكروه لم يزد شكرهم يقيناً بأن الله قبل، وإن جحدوه لم يحمل جحودهم على الندم؛ لأنه لم يكن يتعامل معهم في الأصل، بل كان يعبر بهم إلى الله.

وحين تصبح الغاية هي الله الأعلى، يصغر ما دونها دون أن يُحتقر الخلق أو تُهمَل حقوقهم؛ بل يحسن إليهم الإنسان إحساناً أنقى، لأنه لا يستخدمهم لبناء مجده. يحبهم الله، ويعطيهم الله، ويصبر على جحودهم لله، فلا يتحول معروفه إلى قيدٍ في أعناقهم، ولا يصنع من حاجتهم منصةً لعلوه. إن الإخلاص لا يقطع الإنسان عن الناس، بل يطهّر علاقته بهم من الاستغلال الخفي، ويجعله أرحم بهم لأنه لم يعد محتاجاً إلى أن ينتزع منهم ثمن إحسانه.

ثم تنتهي السورة بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. لم تنتهِ بالمال الذي أعطاه، ولا بالنار التي جُنِبها، بل بالرضا؛ لأن الرضا هو الغنى الذي كانت النفس تبحث عنه في الاتجاه الخطأ. البخیل طلب الغنى في الإمساك فلم يغن عنه ماله، والأتقى طلب وجه الله

بالعطاء فأغناه الله بالرضا. الأول امتلك الشيء وفقد السكينة، والثاني ترك شيئاً من ماله فوجد نفسه؛ الأول استغنى فتردى، والثاني افتقر إلى ربه فارتقى.

يا لها من خاتمةٍ تفيض بالسكينة بعد كل ذلك التقابل الحاد! كأن السورة تقول للإنسان: إن ما تطلبه في جمع الأشياء لا يسكن في الأشياء، وإن الرضا الذي تطارده بين وجوه الناس محفوظٌ عند رب الناس، وإن الطريق إليه يبدأ حين يتخفف القلب من أوهامه، ويبعد النعمة إلى وظيفتها، ويضع الله في أعلى مقاصده. قد تخسر في أعين الدنيا شيئاً، لكنك ستجد من كرامة الله ما يجعلك ترضى، لا رضا ناقصاً تخالطه الحسرة، بل رضا يملأ الروح حتى لا يبقى فيها موضعٌ للحرمان.

وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ و﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ تمتد رحلة القلب من الغطاء إلى الكشف، ومن التشتت إلى الوجهة، ومن الخوف على المال إلى التحرر منه، ومن الاستغناء الوهمي إلى الافتقار المنجي، ومن نار التلطي إلى برد الرضا. وكأن أول السورة يسأل: أي ليل يغشى قلبك؟ ثم تأتي آخرها لتجيب: من ابتغى وجه ربه الأعلى انكشف له النهار الذي لا يعقبه ليل، وبلغ الرضا الذي لا يقطعه فقد.

إن سورة الليل لا تطالب كل إنسان بأن يملك خزائن واسعة حتى يدخل امتحانها، بل تقول له: أعط مما لديك. إن كان عندك مالٌ فاجعل فيه نصيباً لله، وإن كان عندك علمٌ فلا تحبسه، وإن كان عندك قلمٌ فاجعله نافذةً للحقيقة، وإن كان عندك جاهٌ فادفع به ظلماً، وإن كان عندك وقتٌ فامنح منه وحيداً، وإن كان عندك قلبٌ ذاق الألم فلا تبخل على المتألمين بالرحمة. لكل إنسان مالٌ بمعناه الواسع؛ شيءٌ أعطاه الله إياه ويمكن أن يعبر به من ذاته إلى عباده.

ولا تطالبه السورة أن ينتظر العمل العظيم؛ فالطرق الكبيرة تُبنى من خطواتٍ صغيرة، والتمسير يبدأ من إعلان الاتجاه. صدقةٌ لا يعلم بها أحد، وموقفٌ يُختار فيه الحق على المصلحة، وتوبةٌ في ظلمة الليل، وكلمةٌ طيبة لا تنتظر الشكر، وحقٌ يؤدي مع حب المال، كلها بذورٌ قد يباركها الله حتى تصبح طريقاً كاملاً إلى اليسرى. ليس المطلوب أن يصل الإنسان إلى مقام الأتقى في لحظة، بل ألا يتوقف عن السير نحوه، وألا يرضى أن يصبح البخل والاستغناء والتكذيب طبيعةً مستقرةً فيه.

وتعلّنا السورة أن أخطر ما ينبغي مراقبته ليس مقدار المال، بل نوع العلاقة به؛ فقد يكون القليل حجاباً كما يكون الكثير، وقد يفسد فقيراً بحب المال الذي لا يملكه كما يفسد غنيّاً بما يملكه. الحرية ليست في غياب الأشياء، وإنما في بقائها خارج عرش القلب. ومتى جلس المال على العرش انحنى الإنسان له ولو لم يملك منه إلا القليل، ومتى كان الله وحده معبود القلب صار المال كلُّه خادماً للخير وإن كثُر.

كما تعلّنا أن النية ليست سرّاً هامشياً لا أثر له في بنية الحياة، بل هي الاتجاه الداخلي الذي يحدد الوجهة النهائية للعمل. قد ينجز الإنسان ما يبهّر الناس، لكنه إذا ابتغى به وجوههم انتهى أجره عند حدود نظراتهم، وقد يفعل عملاً لا يكاد يرى، لكنه إذا ابتغى به وجه ربه الأعلى اتصل بالباقي. الإخلاص ليس تصغيراً للعمل الظاهر، بل إنقاذاً له من الفناء، لأنه ينقله من ذاكرة البشر القصيرة إلى علم الله الذي لا ينسى.

وحين نخرج من سورة الليل ينبغي ألا نخرج منها كما دخلنا؛ ينبغي أن تتغير نظرتنا إلى ما نحفظ به وما نبذله، وإلى ما نستسهله وما نستثقله، وإلى ما نعلنه وما نخفيه، وإلى الجهة التي نطلب منها الرضا. ينبغي أن نسأل في نهاية كل يوم: أي طريقٍ يسّرْتُ

لنفسى بخطواتي؟ هل صار الخير أقرب إلى قلبي، أم صارت أعذارى عن الخير أكثر إقناعاً؟ هل انكسر فى داخلى شىء من الشح، أم ازداد وهم الاستغناء؟ هل خرج من ىدى الیوم ما یشهد أنى أصدق بالحسنى؟

إن النفس لا تصل إلى العسرى دفعةً واحدة، كما لا تبلغ اليسرى دفعةً واحدة؛ وإنما تتدرج. ومن الحكمة أن یراقب الإنسان الأشياء وهى صغیره، قبل أن تصبح عاداتٍ تصعب مقاومتها؛ أن يتدارك أول انقباضٍ فى الید، وأول لذةٍ فى المدیح، وأول شعورٍ بأنه لا ىحتاج إلى المراجعة، وأول مرةٍ ىسمع فىها الحق ثم یتولى عنه. فالبدايات التى نستهن بها هى التى ستصبح نهاياتٍ إذا منحناها وقتاً كافياً.

وفى المقابل، لا ینبغى أن ىحتقر الإنسان خطوات الخير الصغیره؛ لأن الله الذى یسرّ للیسرى قادراً أن ىجعل الحسنه الأولى مفتاحاً لعمرٍ من الحسنات. قد تبدأ النجاه بدمعة، أو صدقة، أو اعتذار، أو قرارٍ صادق فى منتصف لیلٍ لا یعلم به أحد، ثم یتلقى الله تلك البداية بالبركة، فیتسع الطریق ویقوى القلب، وىجد العبد نفسه بعد أعوامٍ فى موضعٍ لم ىكن یظن أنه ىستطیع بلوغه. المهم أن تكون الخطوة فى الاتجاه الصحیح، وأن ىكون القلب صادقاً فى طلب من ىقوده.

سورة اللیل، فى جوهرها، سورة الحریه من الوهم: من وهم أن المال ىغنى، ووهم أن الإمساك ىحفظ، ووهم أن الإنسان ىستطیع أن ىعیش بلا هدى، ووهم أن الدنیا ملكٌ نهائى، ووهم أن ثناء الناس ىمنح الرضا. وحين تسقط هذه الأوهام ىظهر الإنسان عبداً فقيراً، لكن هذا الافتقار لیس مهانة؛ إنه أعظم مصادر قوته، لأنه یرده إلى الغنى الذى لا تنفد خزائنه، والهادى الذى لا ىضل من استهده، والمالك الذى له

الآخرة والأولى، والرب الأعلى الذي إذا ابتغاه العبد لم يخسر شيئاً وإن خسر العالم كله.

فيا أيها السائر في ليل الحياة، لا تخش أن تكون خطواتك قليلةً ما دامت نحو النور، ولكن اخش أن تكون مسرعاً في الاتجاه الآخر. لا تغترّ بطريقٍ سهلٍ قبل أن تعرف إلى أين ينتهي، ولا تزهد في طاعةٍ ثقيلةٍ قبل أن ترى ما تحبّه من يسر. أعطِ لتتحرر، واتقِ لتبصر، وصدّق بالحسنى لتحتمل الطريق، واستهدِ ربك لأنه وحده الهادي، ولا تستغنِ بما في يدك عمّن وضعه فيها.

وحين يهبط الليل على العالم، تذكر أن كل غطاءٍ سيرُفع، وأن النهار لا بد أن يتجلّى؛
وحين تختلط أمامك المساعي، تذكر أن الطرق تُعرف بأصولها ونهاياتها؛
وحين تخاف نقص المال، تذكر أنه لن يغني عنك إذا تردّيت؛
وحين يفتنك مدح الناس، تذكر أن رضاهم يتقلب وأن وجهة المؤمن أعلى؛
وحين يؤلمك أن عملاً مخلصاً لم يره أحد، تذكر أن عدم رؤية الناس قد يكون هو الحجاب الذي حفظه لك عند الله.

وفي آخر الطريق لن يسأل القلب عن مقدار ما أبقى خلفه، بل عن مقدار النور الذي أرسله أمامه، ولن يأسف على مالٍ أعطاه الله، بل على مالٍ حبسه حتى فارقه، ولن يتمنى مزيداً من ثناء البشر، بل مزيداً من عملٍ لم يبتغ به إلا وجه ربه الأعلى. هناك يعرف الإنسان أن كل مجاهدةٍ كانت تستحق، وأن كل صدقةٍ كانت باقية، وأن كل مرةٍ اختار فيها الله لم تكن خسارة، بل كانت خطوةً نحو الوعد الذي اختتمت به السورة.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾؛ تلك هي الكلمة التي ينبغي أن يحملها القلب بعد أن يطوي صفحات هذا الكتاب: وعدٌ يتلأأ في آخر الليل، ويقول للمتعب من مقاومة نفسه، وللمخلص الذي لم يعرف الناس قدره، وللمعطي الذي خسر شيئاً من عاجلته، وللمتقي الذي ضاق عليه طريق الشهوة: لا تحزن، فما بذلته محفوظ، وما تركته لله معلوم، وما كابدته في سبيله لن يضيع، وخلف هذا الليل نهارٌ يتجلى، وخلف هذا السعي عطاءٌ من الله حتى ترضى.

اللهم اجعلنا ممن أعطى واتقى وصدق بالحسنى، فیسرته للیسرى، ولا تجعلنا ممن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فیسرته للعسرى؛ وطهر قلوبنا من الشح، وأعمالنا من الرياء، وأرواحنا من وهم الاستغناء، واجعل سعينا إليك، ورجاءنا فيك، وابتغاءنا لرضاك، وجنبنا النار التي تلتظى، وامنحنا من فضلك في الآخرة حتى نرضى، وأرض عنا رضا لا ينقطع بعده، يا أرحم الراحمين.

تم بحمد الله وتوفيقه